التفسير الاجمالي

المحاضرة الأولى

فضل القرآن الكريم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فــلا هادي له و أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وشر الأمور محدثاها وكل محدثة بدعة وكـــل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

مقدمة : فضل القرآن الكريم : –

إن القرآن الكريم هو حبل الله المتين وهو النور المبين والصّراط المستقيم عصمة لمن تمسّك به ونجاة لمن اتبعه : – (كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير) (وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تزيل من حكيم حميد) فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبّار قسمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضـــله الله ، وقـــد تكفل الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضّل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة فقال تعالى : – (فإمّا يأتينكم مني هدى فمـــن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) .

ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحث على الاجتماع على قراءة القرآن ومدارسته فكان صلى الله عليه وسلم يقول : – " ومـــا اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله تعالى ويتدارسونه فيما بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمـــة وحفتـــهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده " والمراد بمدارسة القرآن الكريم : – بيان معانيه واستنباط أحكامه ودقائقه التي فيه ولا يتم ذلك إلا عن طريق التفسير .

فضل التفسير وأهميته وحاجة المسلمين إليه : –

إن التفسير : – هو مفتاح كنوز وذخائر القرآن الكريم الذي أنزله الله تبارك وتعالى لإصلاح البشر وانقاذ الناس واعزاز العالم ، وبدون التفسير لا يمكن الوصول إلى هذه الكنوز والذخائر مهما بالغ الناس في ترديد ألفاظ القرآن الكريم وتوافروا على قراءته كل يوم ألف مرة بجميع وجوهه التي نزل عليها ، وهنا نلمح السر في تأخر مسلمة هذا الزمن على رغم وفرة المصاحف في أيديهم ووجود ملايـــين الحفاظ بين ظهرالهم وعلى رغم كثرة عددهم واتساع بلادهم في حين أن سلفنا الصالح نجحوا بهذا القران نجاحا مدهشا كان ومـــا زال موضع إعجاب التاريخ والمؤرخين مع أن أسلافنا أولئك كانوا في قلة من العدد وضيق من الأرض وخشونة من العيش ومـــع أن نسخ القرآن ومصاحفه لم تكن ميسورة لهم ومع أن حفاظه لم يكونوا بهذه الكثرة الغامرة ، أجل ، إن السر في ذلك هو أنهم توفروا على دراسة القرآن واستخراج كنوز هداياته يستعينون على هذه الثقافة العليا بمواهبهم الفطرية وملكاقم السليمة العربية من ناحية وبمـــا يشرح رسول الله صلى الله عليه و سلم ويبينه لهم بأقواله وأعماله وأخلاقه وسائر أحواله كما قال الله سبحانه وتعـــالى لـــه : – (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم ولعلهم يتفكرون) وعلى ذلك كان همهم الأول هو القرآن الكريم يحفظونه ويفهمونه قبل أن يحفظوه ثم يعملون بتعاليمه بدقة ويهتدون بهديه في يقظة ، بهذا وحده صفت أرواحهم وطهرت نفوسهم وعظمت آثارهم لأن الروح الانساني : – هو أقوى شيء في هذا الوجود فمتى صفى وتهذب وحسن توجيهه وتأدب أتى بالعجب العجاب والله عنده حسن الثواب .

وكذلك أتت الأمة العربية بالعجب العجاب في الهداية والارشاد وانقاذ العالم واصلاح البشر وكتب الله لهم النصر والتأييد والدولة والظفر حتى على أقوى الدول المعادية لدعوة الحق والاصلاح في ذلك العهد دولة الفرس في الشرق ودولة الرومان في الغرب ، تلك محوها من لوح الوجود بهدم طغيانهم واسلام شعبها وهذه سلبوها ما كان في حوزتها من ممالك الشرق وشعوبه الكثيرة ، ثم دانت لهم الدنيا فاستولوا على بعض بلاد أوربا وأقاموا فيها دولة عربية شامخة البنيان كانت بهجة الدنيا وزينة الحياة ومنها شعّ النور على الشعوب الأوربية وكانت النواة الناجحة في نهضتهم الحديثة الحاضرة تلك هي فردوس الأندلس المفقود .

أما غالب مسلمة اليوم فقد اكتفوا من القرآن بألفاظ يرددونها وأنغام يلحنونها في المآتم والمقابر والدور وبمصاحف يحملونها أو يودعونها بركة في البيوت ونسوا أن بركة القرآن العظمى إنما هي في تدبره وتفهمه وفي الجلوس إليه والاستفادة من هديه وآدابه ثم في الوقوف عند أوامره ومراضيه والبعد عن مساخطه ونواهيه يقول الله تبارك وتعالى في الحث على تدبر القرآن وفهمه ومعرفة مراد الله تبارك وتعالى منه : – (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته و ليتذكر أولوا الألباب) ويقول سبحانه : – (ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر " ويعيب سبحانه وتعالى على الذين لا يتأملون القرآن ولا يتدبرون فيه فيقول سبحانه : – " أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ، فما أشبه المسلمين اليوم بالعطشان يموت من الظمأ والماء بين يديه وبالحيوان يهلك من الاعياء والنور من حوله يهديه السبيل لو فتح عينيه، ذلك هو الخسران المبين .

ألا إن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها وهو أن يعودوا إلى كتاب الله يستلهمونه الرشد ويستمنحونه الهدى ويحكّمونه في نفوسهم وفي كل ما يتصل بهم كما كان آباؤنا الأولون يتلونه حق تلاوته بتدبر وتفكر في مجالسهم ومساجدهم وأنديتهم وبيوتهم وفي صلواتهم المفروضة والنافلة وفي تهجدهم بالليل والناس نيام حتى ظهرت آثاره الباهرة عاجلة فيهم فرفع نفوسهم وانتشلها من حضيض الوثنية وأعلى هممهم و هذب أخلاقهم وأرشدهم إلى الانتفاع بقوى الكون ومنافعه .

و كان من وراء ذلك : – أن مهروا في العلوم والفنون والصناعات كما مهروا في الأخلاق والآداب والاصلاح والارشاد ، ووصلوا إلى غاية بزوا فيها كل أمم الدنيا حتى قال بعض فلاسفة الغرب في كتابه : – (تطور الأمم) ما نصه : – إن ملكة الفنون لا تستحكم في أمة

من الأمم إلا في ثلاثة أجيال : –

١) جيل التقليد .

٢) وجيل الخضرمة .

٣) وجيل الاستقلال .

وشذ العرب وحدهم فاستحكمت فيهم ملكة الفنون في جيل واحد .

وقال السيوطي في بيان الحاجة إلى التفسير ما ملخصه : – القرآن إنما نزل بلسان عربي في زمن أفصح العرب فكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه أما دقائق باطنه فلا تظهر لهم إلا بعد البحث والنظر وسؤالهم النبي صلى الله عليه وسلم مثل قولهم : – يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه حينما نزل قول الله تعالى : – (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) ففسر النبي صلى الله عليه وسلم الظلم بالشرك واستدل بقول الله تعالى : – (إن الشرك لظلم عظيم) ، وكذلك حين قال النبي صلى الله عليه وسلم : – " من نوقش الحساب عذب " سألته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن قول الله تعالى : – (فسوف يحاسب حسابا يسيرا وينقلب إلى أهله مسرورا) فقال صلى الله عليه وسلم : – ذلك العرض .

وكقصة عدي بن حاتم : – " في الخيط الأبيض والخيط الأسود " ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه بل نحن أشد الناس احتياجا إلى التفسير لقصورنا عن مدارك اللغة وأسرارها بغير تعلم .

معشر الطلاب ، مما تقدم يتبين أن فائدة التفسير : – هي التذكر والاعتبار ومعرفة هداية الله تعالى في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق ليفوز الأفراد والمجاميع بخير العاجلة والآجلة .

ويتبين أيضا أن هذا العلم من أشرف العلوم الدينية والعربية إن لم يكن أشرفها جميعا وذلك لسمو موضوعه وعظم فائدته .

وسمي علم التفسير : – لما فيه من الكشف والتبيين واختص بهذا الاسم دون بقية العلوم مع أنها كلها مشتملة على الكشف والتبيين لأنه لجلالة قدره واحتياجه إلى زيادة الاستعداد وقصده إلى تبيين مراد الله من كلامه كان كأنه هو التفسير وحده دون ما عداه .

ذلك هو فضل القرآن الكريم وذلك هو فضل التفسير وضرورته وحاجة المسلمين إليه .

فما هو التفسير وما معناه ؟

التفسير في اللغة : الايضاح والتبيين ومنه قول الله تعالى في سورة الفرقان : – (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) .

أما التفسير في اصطلاح : – العلماء فهو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية .

وعرفوا علم التفسير أيضا بأنه علم يبحث فيه عن أحوال الكتاب العزيز من جهة نزوله وسنده وأدائه وألفاظه ومعانيه المتعلقة بالألفاظ والمتعلقة بالأحكام .

كما عرفوا التفسير تعريفا ثالثا : – بأنه علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم ومدلولاتها وأحكامها الافرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حال التركيب ، وغير ذلك كمعرفة النسخ وأسباب النزول وما به توضيح المقام كالقصة والمثل .

وهذا التعريف الثالث تعريف وسط بين التعريفين السابقين ومن السهل رجوعه إلى التعريف الأول لأن ما ذكر هنا بالتفصيل يعتبر بيانا لمراد الله من كلامه بقدر الطاقة البشرية في شيء من التفصيل .

وقد ذكر العلماء للمفسر شروطا نجملها فيما يأتي : –

أولا : – صفة الاعتقاد : –

فإن العقيدة لها أثرها في نفس صاحبها وكثيرا ما تحمل ذويها على تحريف النصوص والخيانة في نقل الأخبار فإذا صنف أحد كتابا في التفسير أوّل الآيات التي تخالف عقيدته وحمّله باطل مذهبه ليصد الناس عن اتباع السلف ولزوم طريق الهدى .

ثانيا : – التجرد عن الهوى : –

فالأهواء تدفع أصحابها إلى نصرة مذهبهم فيغرون الناس بلين الكلام ولحن البيان كدأب طوائف القدرية والرافضة والمعتزلة ونحوهم من غلاة المذاهب .

ثالثا : – أن يبدأ أولا بتفسير القرآن بالقرآن : –

فما أجمل منه في موضع فإنه قد فصّل في موضع آخر ، وما اختصر منه في مكان فقد بسط في مكان آخر .

رابعا : – أن يطلب التفسير من السنة : –

فإنها شارحة للقرآن موضحة له و قد ذكر الله تبارك وتعالى أنه أنزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم ووكل إليه مهمة البيان فقال : – (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : – " ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه " .

يعني : – السنة .

خامسا : – فإذا لم يجد التفسير من السنة رجع إلى أقوال الصحابة : –

فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القوائل والأحوال عند نزوله و لما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح .

سادسا : – فإذا لم يجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا في أقوال الصحابة فقد رجع كثير من الائمة : –

في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة مولى بن عباس وعطاء بن ابي رباح والحسن البصري وغيرهم من التابعين.

سابعا : – العلم باللغة العربية وفروعها : –

فإن القرآن نزل بلسان عربي ويتوقف فهمه على شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع .

قال مجاهد : – لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب .

والمعاني تختلف باختلاف الاعراب ومن هنا مست الحاجة إلى اعتبار علم النحو والتصريف الذي تعرف به الأبنية والكلمة المبهمة يتضح معناها بمصادرها ومشتقاتها وخواص تركيب الكلام من جهة إفادتها المعنى ومن حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها ثم من ناحية وجوه تحسين الكلام .

وهي علوم البلاغة الثلاثة : –

١) المعاني

٢) والبيان

٣) والبديع

من اعظم أركان المفسر إذ لابد له من مراعاة ما يقتضيه الاعجاز وإنما يدرك الاعجاز بهذه العلوم .

ثامنا : – العلم بأصول العلوم المتصلة بالقرآن كعلم القراءات : –

لان به يعرف كيفية النطق بالقرآن ويترجح بعض وجوه الاحتمال على بعض ، وعلم التوحيد حتى لا يؤول آيات الكتاب التي في حق الله وصفاته تأويلا يتجاوز به الحق .

وعلم الأصول واصول التفسير خاصة مع التعمق في ابوابه التي لا يتضح المعنى ولا يستقيم المراد بدونها كمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ ونحو ذلك .

تاسعا : – دقة الفهم التي تمكن المفسر من ترجيح معنى على آخر أو استنباط معنى يتفق مع نصوص الشريعة .

وللمفسرين أساليبهم وطرقهم ومناهجهم في التفسير ، وينقسم التفسير بهذا الاعتبار إلى أقسام منها : –

١– التفسير التحليلي : – وهو التفسير الذي يقف فيه المفسرون أمام كل آية حسب الترتيب المصحفي ويقوم بتحليلها تحليلا موسعا يعنى فيه بتحقيق المفردات ودلالتها اللغوية ويبرز دلالتها التركيبية وما يستنبط منها من معان وحكم مبرزا ما يتعلق بالآية من مختلف الموضوعات والمباحث والمسائل في العقيدة واللغة والنحو والبلاغة والروايات والأخبار والقراءات واسباب النزول إن وجدت مشيرا إلى أهم ما ترمي إليه من قواعد وعظات متناولا ذلك بأسلوب واضح بيّن ويقدم المفسر بذلك ثقافة موسوعية متعددة وشاملة .

٢– التفسير الإجمالي : – وفيه يقوم المفسر بتوضيح المراد من كتاب الله تعالى متناولا الآيات القرآنية على غرار ما يتناوله بها في المنهج التحليلي لكن بإجمال واختصار وإيجاز فيقدم المعنى الإجمالي للآيات بدون توسع أو تفصيل ودون تحليل أو تطويل ويذكر أرجح الاقوال ضاربا صفحا عن الأقوال المرجوحة ويذكر ذلك بأسلوب مركز موجز دون استطراد في المباحث اللغوية أو العقدية أو الفقهية ونحوها . وأهم من يمثل هذا النوع وأبرز من يتسم بهذا النوع الامام النسفي في تفسيره مدارك التنزيل وحقائق التأويل والجلالين في تفسيرهما والامام الواحدي في تفسيره الوجيز في تفسير القرآن والعلامة السعدي في تفسيره تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، وهذا النوع يمكن أن يلحق بالنوع السابق ويدخل ضمنه لأنهما يقومان على خطوات واحدة إلا أن الأول يغاير الثاني في طريقة العرض والتناول وهي الاطناب بينما يتناولها الأخير بشيء من الاختصار والإيجاز.

٣– التفسير المقارِن : – وهو أن يجمع المفسر فيه بين ما كتبه مفسران أو أكثر و يبرز ما بين الكاتبين أو الكتّاب من تمايز أو اتفاق أو اختلاف ويوضح أوجه التفوق والقصور والتأثر والتأثير وهذه المقارنة لا تشمل تفسير القرآن كله لأن هذا غير وارد وإنما تكون خاصة بصورة معينة أو موضوع محدد .

٤– التفسير الموضوعي : – وهو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من سورة واحدة أو أكثر .

هذه هي مناهج المفسرين وأساليبهم و طرقهم في التفسير ، وسنشرح إن شاء الله تبارك وتعالى الجزأين المشار إليهما : – جزء عم وتبارك تفسيرا إجماليا ونسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد .

التفسير الإجمالي

المحاضرة الثانية عشرة

تفسير النبأ والنازعات

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آلـه وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير سور وهي : النبأ ، والنازعات .

سورة النبأ

أما سورة النبأ ، فقد استفتحها الله تبارك وتعالى : – بهذا السؤال للاستنكار على المكذبين بيوم الدين ، فقال عز وجـل : – (عَـمَّ يَتَسَاءَلُونَ) عن أي شيء يتساءلون : – أيتساءلون (عن النبأ العظيم) الظاهرة براهينه ، الواضحة دلائله وآياته ، وهو البعث بعـد الموت ، (الذي هم فيه مختلفون) ، فمنهم مؤمن به وكافر ، ثم قال : – (كلا) ، وهي كلمة زجر ووعيد (كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) عاقبة التكذيب ، (ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ) ولم يذكر المعلوم حتى تذهب العقول فيه كل مذهب ، فيكون ذلك أشد تأثيراً في النفس مما لو ذكر المعلوم ، فلو ذكر المعلوم لهان عليهم ، فحذفه حتى يكون وقع التهديد أشد على أنفسهم .

ثم الله تبارك وتعالى أن زارهم إلى مظاهر قدرته ، التي تدلهم على أن الله يحيي الموتى ، ويبعث من في القبور ، فقال سبحانه : – (أَلَـمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا) أي : – ممهدة سهلة ذلولة ، (وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا) للأرض كأوتاد الخيمة التي تثبت بها ، حتى لا تقلعهـا الرياح ، كما قال عز وجل : – (وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بكم) ، (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا) أي : – ذكر ، وأنثى ، يتمتع كل منهما بالأخر ، ويحصل التناسل .

(وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا) أي : – قاطع للحركة ، لتحصل الراحة من كثرة السعي في المعايش ، (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا) يغشي الكون بظلامه حتى تستريحوا فيه (وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) أي : – مشرقاً نيراً ، لتغدوا وتروحوا في طلب المعاش وكسب التجارة ، وغير ذلك من مصالحكم .

(وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا) أي : – السماوات السبع ، الذي خلق سبع سماوات طباق ، ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر . هل ترى من فطور ، ثم ارجع البصر كرتين ، ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ، (وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا) يعني : – الشمس ، (وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ) وهي السحاب (مَاء ثَجَّاجًا) أي : – كثيراً متتابعاً ، (لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا) أي : – مجتمعه ، كما قال عز وجل : – (هو الذي من السماء ماء لكم منه شرابا ومنه شجر فيه تسمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) .

فلو تأمل الإنسان حق التأمل ، في هذه الآيات الكونية ، السماء وارتفاعها ، والأرض وسعتها ، والجبال وعلوها ، وما في السماء من شمس وقمر ، وما يعقبها من ليل ونهار ، ولو تأمل الإنسان في نفسه هو ، ولو تأمل في المطر يترل من السماء فيحي الأرض الميتة بإذن الله ، لو تأمل الإنسان حق التأمل في هذه الآيات الكونية ، والإنسانية ، لعلم أن الله يحيي الموتى ، ويبعث من في القبور .

ثم قال تعالى : – (إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا) يعني : – أن الله سبحانه وتعالى وقت ليوم القيامة وقتاً معلوم ، فلا يسبقه ، ولا يتأخر عنه ، كما قال عز وجل : – (ذلك يوم مجموع له الناس) وذلك يوم مشهود ، (يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا وَفُتِحَتِ السَّمَاء فَكَانَتْ أَبْوَابًا وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا) ، ثم ذكر الله تبارك وتعالى ، جزاء المكذبين بيوم الدين ، فقال : – (إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَـتْ

مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآبًا) يعني : – أن جهنم هي مآب الظالمين المكذبين بيوم الدين ، ومرجعهم ، وهي نزلهم الذي يعد لهم بينما ينصرفون من أرض المحشر .

(لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا) جمع حقب : – وهي أحقاب دائمة لا تنتهي ، كلما مضي حقب تبعه آخر ، يريدون أن يخرجوا من النار ، وما هم بخارجين منها ، ولهم عذاب مقيم ، لا يذوقون فيها برداً يخفف عنهم حرها ، ولا شراباً يذهب عنهم ظمأهم .

(إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا) قال أبو العالية : – استثنى من البرد الحميم ، ومن الشراب الغساق ، والحميم هو الماء الحار الذي انتهى حره وحموه ، والغساق هو ما اجتمع من صديد أهل النهار ، وعرقهم ، ودموعهم وجروحهم ، فهو بارداً لا يستطاع من برده ولا يواجــه من نتنه .

وقوله تعالى : – (جَزَاء وِفَاقًا) أي : – كان هذا الجزاء ، جزاء موافق لأعمالهم ، ولم يظلمهم الله شيئا ، وذلك أنهم كانوا لا يرجون حساب ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا أئذا متنا وكنا تراب وعظام ، أإنا لمبعوثون ، أو أبائنا الأولون ، (وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا) أي : – كذبوا بآيات الله التنزيليه ، وبآيات الله التكوينية ، والحال أن الحفظة قد سجلت عليهم أعمالهم كلها ، وأقوالهم دقها وجلها ، وكل شيء أحصيناه كتاب ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ، وهذا القول أشد على أنفسهم من العذاب ، فإن الرجــل إذا عوقب بالحبس مع الأعمال الشاقة يخفف عنه العذاب تحديد المدة ، فهو يعد ويعد ومهما كانت المدة طويلة فإن تحديدها يهونها عليه ، ولكن أهل النار لابسين فيها أحقابا ، ثم يقال لهم : – فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا ، فيقطع هذا القول عليهم كل أمل ، ويغلق عليهم كل باب رجاء ، ولما ذكر الله تعالى حال المكذبين بيوم الدين في النار ، أتبعه بذكر حال المؤمنين المصدقين في الجنة ، فقال تعالى : – (إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا) والكواعب هن الشابات النواهد ، اللاتي لم يتدلى ثديهن ، لأنهن أبكار عرب أتراب ، أي ذوات سن واحدة كلهن شباب وفتوة ، وحيوية وقوة ، وقوله تعالى : – (وَكَأْسًا دِهَاقًا) أي : – مملوءة متتابعة ، (لّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا كِذَّابًا) أي : – ليس في الجنة كلام لا غ عاري عن الفائدة ، وليس فيها كلام كذب يوجب الإثم ، لأنهم في دار السلام لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيماً إلا قيلاً سلاما سلام ، وكان هذا (كِذَّابًا جَزَاء مِّن رَّبِّكَ عَطَاء حِسَابًا رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَــا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ) الذي شملت رحمته كل شيء ، ووسعت كل شيء ، لا يملكون منه خطاب أي : – لا يقدر أحد على ابتداء مخاطبتــه عز وجل إلا بإذنه (خِطَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا لّا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) ، والروح : – هو جبريل الأمين عليه السلام ، فجبريل عليه السلام يقوم يوم القيامة مع الملائكة ولا يملك الكلام إلا أن يأذن له الرحمن ، ذلك اليوم الحق الذي يكذب به المجرمون ، وهو كائن لا محالة ، وهذه مساكن الناس فيه فريق في الجنة ، وفريق في السعير .

(فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآبًا) ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ، وليس هناك سبيل يوصل إلى الله إلا سبيل محمد صلى الله عليه وسلم ، كما قال : – كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ، قيل ومن يأبى يا رسول الله ، قال : – من أطاعني ، ومن عصاني فقد أبى .

وقوله تعالى : – (إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا) يعني وقد أعذر من أنذر ، كما قال سبحانه ، (رُسُلا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) وقوله : – عذاب قريب نوصفة بالقرب لأنه آت لا ريب فيه وكل ما هو آت قريب ، يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، أي : –يعرض عليه جميع عمله كما قال تعالى : – (يوم تجد كل نفس من خير محضر وما عملت من ســوء) وقــال سبحانه : – (ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر) (وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا) يعني : – حين يرى مصيره إلى النار ، ومصير البهائم إلى التراب يتمنى ألو كان من البهائم حتى يصير إلى ما صار إليه ، والعياذ بالله .

أما سورة النازعات

أما سورة النازعات ، فقد استفتحت : – كما ذكرت بالقسم المتكرر على إن يوم القيامة حق ، وأن البعث بعد الموت حــق ، وقــد اختلف العلماء في المقسم به في هذه الآيات (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا)

والمختار أن المقسم به في هذه الآيات الملائكة . (النَّازِعَاتِ) ملائكة الموت يترع روح الكافر الفاجر نزعاً شديداً ثم تغرقها في جهنم . (وَالنَّاشِطَاتِ) ملائكة الموت تقبض روح المؤمن بيسر وسهوله فتخرج كأنما نشطت من عقال . (وَالسَّابِحَاتِ) ملائكة تسبح بين السماء والأرض ، نزولا بما حملت من أمر الله وعروجاً إلى السماء مرة ثانية . (السَّابِقَاتِ) ملائكة تسبق إلى تنفيذ أمر الله عز وجل ، فهم عند ربهم صافون كما قالوا : – وإنا لنحن الصافون ، فإذا أمرهم الله تعالى بأمر تسابقوا إلى تنفيذ أمره . وقوله تعالى : – (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) الملائكة تدبر أمر الكائنات بإذن الله عز وجل لا من عند نفسها ابتداء ، فالملائكة لا تدبر أمر نفسها فضلا عن أن تدبر أمر غيرها ، إنما الله سبحانه وتعالى هو الذي يدبر الأمر ، والملائكة هي التي تنفذ أمر الله عز وجل ، قال الله تعالى : – (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ) وقد وكل الله تبارك وتعالى بالمخلوقات ملائكة ، تنفذ فيها ما قدر الله سبحانه وتعالى ، وأراد ، فوكل الله تعالى بالوحي ملائكة ، ووكل بالموت ملائكة ، ووكل بالمطر ملائكة ، ووكل بالنفخ في الصور ملائكة ، ووكل بالأرحام ملائكة ، وقوله تعالى : – (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا) كقوله تعالى في الذاريات : – (فالمقسمات أمر) والمراد : – الملائكة تقسم الأمور وتدبرها بإذن الله ، أما من غير إذنه فلا قال الله تعالى : – (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) .

ولن يصرح ربنا سبحانه وتعالى هنا ، بجواب القسم ، ولكنه اكتفى عن ذكره هنا بما صرح به في سورة المرسلات ، (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ) إنما توعدون من البعث والحساب والجزاء والجنة والنار ، إن ما توعدون لواقع .

ثم ذكر حال الناس يوم القيامة ، فقال : – (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ) والراجفة : – النفخة الأولى في الصور ، نفخة الفناء ، والرادفة : – النفخة الثانية نفخة البعث ، والإحياء .

ثم ذكر الله تعالى حال الناس (يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ) فقال عز وجل : – (قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ) .

أي : – خائفة ، تظن أن يفعل بها فارقه ، ولذلك قال : – (أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ) أي : – ذليلة منكسرة ، كما قال تعالى : – (خاشعة إبصارهم ترهقهم ذله) أولئك هم الكفرة الفجرة .

أما المؤمنون فوجوههم بيضاء مسفرة ، وهم آمنون مطمئنون كما قال تعالى : – (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ) والسبب في كون الكفرة الفجرة ، يوم القيامة : – خائفون قلقون أذلة السبب أنهم كانوا في الدنيا لا يؤمنون بلقاء الله ، ولا يصدقون بيوم الدين ، وكانوا يقولون : – (أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ) أي : – راجعون إلى الحياة مرة ثانية بعد الموت ، فالعرب تقول : – رد فلان إلى الحافرة ، أي : – رجع إلى سيرته الأولى .

وقوله : – (أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً) استبعاد للبعث والرجوع إلى الحياة بعدما صاروا تراباً (أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ) أرادوا أنه لو كان ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم من البعث حقاً ، لكانوا هم الأخسرين في هذه الرجعة ، لأنهم لم يستعدوا لها ، ولم يحسبوا حسابها

قال تعالى : – (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ) كما قال سبحانه : – (إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) والمراد : – أن أمر الله تبارك وتعالى واحد لا يتكرر ، فإذا أمر اسرافيل بالنفخ في الصور النفخة الثانية ، استجاب وأجابه الناس إلى ما دعاهم إليهم من الخروج من الأجداث ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده ، وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً .

وقوله سبحانه : – (فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ) أي : – إذا هم بعد النفخة فجأة بالأرض المبدلة ، أرض بيضاء نقية ، ووصفت ، والعرب تصف الأرض التي يترل بها الناس ، ولا ينامون ، بالساهرة

ولا شك أن تكذيب المكذبين بيوم الدين كان يحزن النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه : – تكذيب له فيما أخبرهم به ، من أنهم إلى الله راجعون ، فذكر الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بأخيه موسى عليه السلام ، لعله يصبر كما صبر ، فقال : – (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى) وهذا السؤال للتشويق والترغيب ، (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى) والمقدس صفة للوادي ، وطوى اسم له وهو أسفل جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى وناداه ، (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى) أي : – تتطهر من دنس الكفر بالإيمان ، ومن دنس الشرك بالتوحيد ، ومن دنس المعصية بالطاعة ، (وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الآيَةَ الْكُبْرَى) وهي العصا ألقاها فإذا هي ثعبان مبين ، (فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى) أي : – انتقم الله منه انتقاماً جعله به عبرة ونكالاً لأمثاله من المتمردين ، فأما أخذه في الدنيا ، فكان كما قال تعالى : – (فأغرقناه ومن معه جميعا) وأما في الآخرة فإنه يقدم قومه يوم القيامة ، فأوردهم النار و بئس الورد المورود .

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى) ، وإنما خص العبرة بأهل الخشية ، لأنهم الذين ينتفعون بآيات الله ، وينتفعون بالمواعظ والذكرى ، أما الجبابرة الطغاة الذي قست قلوبهم ، فقد قال تعالى عنهم : – (وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ) .

ثم لفت الله تبارك وتعالى أنظار المكذبين بيوم الدين ، إلى دلائل البعث التي تكررت في سورة المرسلات ، وسورة النبأ ، وهي خلق السماء والأرض ، والليل والنهار ، والجبال ، وإنزال الماء من السماء ، وإحياء الأرض بعد موتها ، كل هذه أدلة تدل على أن الله يحيي الموتى ، ويبعث من في القبور ، (أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) .

ثم ذكر سبحانه وتعالى أيضا : – حال المكذبين بيوم الدين ، وحال المؤمنين ، إذا بعثوا يوم القيامة ، وأن المكذبين في الجحيم ، وأن المؤمنين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

ثم ختم الله تبارك وتعالى السورة : – ببيان أن علم الساعة لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى : – (يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا) إليه يرد علم الساعة إن الله عنده علم الساعة ، أما أنت يا محمد (إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا) ، ومن هنا قيل ، الدنيا ساعة فاجعلها طاعة .
رضينا بالله رب ، وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

تفسير الإجمالي

المحاضرة الثالثة عشرة

تفسير سور عبس والتكوير والإنفطار

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آلــه وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير ثلاث سور وهي : – عبس ، والتكوير ، والانفطار .

سورة عبس ، والتكوير ، الإنفطار .

أما سورة عبس

فهي سورة مكية ، تعالج في بداية حادث معيناً من حوادث السيرة ، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، مشغولاً بأمر جماعة من كبراء قريش يدعوهم إلى الإسلام ، إذ جاءه ابن أم مكتوم الرجل الأعمى الفقير ، وهو لا يعلم أنه مشغول بأمر القوم ، يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله ، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منه ، وعبس وجهه ، وأعرض عنه ، فترل قرآن بصدر هذه السورة بعاتب الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا التصرف ، ثم تعالج جحود الإنسان وكفره الفاحش لربه ، وهو يذكره بمصدر وجوده وأصل نشأته وتيسير حياته ، وتولي ربه له في موته ونشره ، ثم تقصيره بعد ذلك في أمره كذلك تعالج توجيه القلب البشري إلى أمس الأشياء به ، وهو طعامه وطعام حيوانه ، وما وراء ذلك الطعام من تدبير الله وتقديره له ، كتدبيره وتقديره في نشأته ، فأما في نهايتها فتتــولى عرض الصاخة ، يوم تجيء بهولها ، الذي يتجلى في لفظها كما تتجلى أثارها في القلب البشري ، الذي يذهل عما عاداها ، وهــو في الوجوه التي تتحدث عما دهاها .

يقول تعالى : – (عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الأَعْمَى) .

قال العلماء : – في ذكر كلام بأسلوب الغيبة دون الخطاب ، ملاطفة من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ، إذ لو خاطبــه لكــان الخطاب شديداً على نفسه ، فعدل الله تعالى عن الخطاب إلى الغيب ، رفقاً بنبيه صلى الله عليه وسلم في العتاب ، وقوله تعــالى : – (وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى) أي : – ما يدريك لعل هذا الأعمى الذي جاءك يسعى لعله يتزكى بما جاء يطلبه من علم الله الذي عندك ، أو ينتفع بما تذكره به من الهدى ودين الحق ، الذي أرسلك الله به ، ثم تشتد لهجة العتاب ، وينتقل إلى التعجيب من ذلك الفعل ، محل العتاب ، (أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى) عن ربه بماله ، واستغنى عنك وما بعثك الله به من الهدى ودين الحق ، (فَأَنتَ لَــهُ تَصَدَّى) أي : – تتعرض له ، وتحرص على هدايته (وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى) أي : – ليس عليك من حسابه شيء ، إنه كذب وتــولى فلماذا هذا الحرص على هدايته وقد استغنى (وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى) يلتمس ما عندك من العلم وهو يخشى الله ويخافه ويحذر عقابه ، (فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى) بمن عندك من المشركين ، وتعرض عنه فلا تقبل عليه ، (كَلاَّ) هذا لا يجوز ولا ينبغي أن يكون (إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ) فلا تعد لمثلها أبد ولا تعرض عن من أقبل عليك ، ولا تتصدى لمن تولى عنك وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شــاء فليكفــر ولذلك قال : – (فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ) فمن شاء ذكر الله في جميع أموره ، أو ذكر هذا الوحي فاتبعه .

وقوله تعالى : – (فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ) يعني : – أن هذه التذكرة أو هذا التتريل محفوظ في صحف مكرمة أي : – معظمة موقره مرفوعة ، أي : – عالية القدر مطهرة من الدنس والزيادة والنقص ، بأيدي سفره يعني : – ملائكة الوحي الذين هم سفرة بين الله ورسله ، وأخصهم جبريل عليه السلام وكلهم كرام برره أي : – خلقهم كريم حسن شريف ، وأخلاقهم وأفعالهم بارة طاهرة ، وهذه الآيات كقوله تعالى : – (فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ)

ثم يقول سبحانه : – (قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) المراد بالإنسان هنا : – الكافر . بدليل تعجب الله سبحانه من كفر هذا الإنسان بقوله : – (مَا أَكْفَرَهُ) أي : – ما أعظم كفره ، أو ما أكثر كفره ، في حين أن دلائل الإيمان نافذة أمام عينيه ، لا تخفى على من كان له أدنى نصيب من نور البصيرة ، (مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) تنبيه للإنسان الكافر على أصل نشأته الذي هو دليل واحد على وجود خالقه ، واستحقاقه للعبادة ، (مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ) فكيف يعجز عن بعثه بعد الموت ، (قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ) .

وقوله تعالى : – (ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ) اختلف العلماء في المراد بالسبيل هنا فقال بعضهم : – هو طريق خروجه من بطن أمه إلى هذه الدنيا .

وقال بعضهم : – المراد بالسبيل هنا طريق الخير وطريق الشر . كما قال تعالى : – (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) وقال : – (وهديناه النجدين) أي : – بينا له الطريقين ، طريق الخير وطريق الشر .

وقوله تعالى : – (ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ) أي : – جعل له قبراً يدفن فيه ، وجعل دفنه بعد موته فرضاً على الأحياء ، ولم يشأ الله سبحانه أن يجعل الإنسان بعد موته كسائر الميتات تلقى على القمائم ونحوها فتأكلها السباع ، وهذا من إكرام الله تعالى للإنسان ، كما قال تعالى : – (ولقد كرمنا بني ادم) وقوله : – (ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ) أي : – بعثه بعد موته .

(كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) فيه للعلماء قولان : –

الأول : – أن الإنسان لم يقم بما أمره الله به حق القيام .

والثاني : – (كَلاَّ لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ) أي : – لم يتم بعد ما سبق به قضاء الله مما أمر أن يكون .

قال العلماء في هذه الآيات : – إشارة إلى الاستدلال بالنشأة الأولى ، على إمكان الثانية ، كما قال تعالى : – (ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون) وقول الله سبحانه : – (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ) أي : – ليتأمل فيه كلما قدم له ، (أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا) أي : – أنزلنا الماء من السماء فشق الماء الأرض فتخلل تربتها ، فنبت الحب المودع فيها ، وارتفع حتى شق الأرض وظهر عليها (فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا) والحب والعنب معروفان ، أما (القضب) فهو النبات الذي يأكل رطباً غضا ، ويقطع مرة بعد مرة ، (وَزَيْتُونًا وَنَخْلا) وهما معروفا أيضا (وَحَدَائِقَ غُلْبًا) أي : – كثيرة الأشجار ، فقد التف بعضها على بعض ، (وَفَاكِهَةً وَأَبًّا) والفاكهة معروفة ، وأما الأب : – فو ما يخص البهائم مما ينبت في الأرض .

ثم ختم الله تعالى السورة : – بذكر بعض أهوال يوم القيامة ، وأحوال الناس فيها ، فقال : – (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ) وهي صيحة يوم القيامة ، النفخة التي ينفخها اسرافيل عليه السلام ، سميت كذلك لأنها تصخ الآذان من شدتها ، وتحدث بسببها أهوال عظام ، تجعل الإنسان ينشغل بنفسه عن أقر بالناس منه ، وأحبهم إليه (فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) .

عن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : – " يحشر الناس يوم القيامة ، حفاة ، عراة ، غرلا " ، قالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله : – النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ، فقال صلى الله عليه وسلم : – " يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض ، لكل امرؤ منهم يومئذ شأن يغنيه ".

وقوله تعالى : – (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) أي : – أن الناس في هذا الموقف يكونون قسمين ، وجوه مسفرة أي : – مستنيرة ضاحكة مستبشرة ، أى : – فرحة مسرورة ، ووجوه مسودة عليها غبره ترهقها قطرة ، كما قال تعالى : – (يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ) وقال سبحانه : – (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ) .

نسأل الله تعالى أن يبيض وجوهنا ، ويثقل موازيننا ، ويجعلنا من ورثة جنة النعيم .

أما سورة التكوير والانفطار

فهما سورتان : – قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : – " من أحب أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي العين " ، فليقرأ : – (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) ، و (إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ) ، و (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ) .
فكل من السورتين تتحدث : – عن القيامة ، وأهوالها .

أما سورة التكوير

فقد استفتحتها : – الله تبارك وتعالى (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) والتكوير : – هو لف الشيء بعضه على بعض ، كتكوير العمامة ، ويوم القيامة ، تجمع الشمس والقمر ، ثم يكوران ويرمى بهما في البحار فإذا هي نار موقدة .
(وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ) أي : – سقطت من مواقعها ، (وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ) من أماكنها ، كما قال تعالى : – (وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ) وقال : – (وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا) وقال : – (وسيرت الجبال فكانت سرابا) ثم تذهب بالكلية فلا يبقى لها عين ولا أثر ، (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا) .
(وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ) المراد بالعشار : – الحوامل من الإبل ، عطلت أي : – أهملها أهلها وتركوها فلم يسألوا عنها ، وكانت أحب شيء إلى نفوسهم (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) أي : – جمعت وأحضرت ، كما قال تعالى : – (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) .
(وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) أي : – أوقدت ، فاشتعلت نار ، كما في الانفطار (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ) (وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ) كما قال تعالى : – (احشروا الذين ظلموا وأزواجهم) والمراد جمع كل نظير إلى نظيره : – جمع أصحاب العمل الواحد بعضهم مع بعض ، فيكون الرجل الصالح مع الرجل الصالح ، والرجل السوء مع الرجل السوء ، وهكذا ، كما قال تعالى : – (وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ) .
وقوله تعالى : – (وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ) كان العرب يكرهون البنات ، وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ، فنهاهم الله تعالى عن ذلك .

وأخبر أن هذه الموءودة ستسأل يوم القيامة بأي ذنب قتلت ؟ ، وهذا تهديد شديد لقاتلها ، فإنه إذا سئل المظلوم فما بالك بالظالم ، وقوله تعالى : – (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ) أي : – أعطي كل إنسان صحيفة عمله ، بيمينه أو بشماله ، فما منا إلا وله ملكان عن اليمين ، وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، فإذا مات العبد طويت صحيفته ، وجعلت معه في عنقه ، حتى إذا بعث نشرت له ، كما قال تعالى : – (وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا) .

(وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ) أي : – أزيلت ، (وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ) أي : – أحميت ، (سُعِّرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ) أي : – أدنيت من أهلها المتقين ، كما قال تعالى : – (وأزلفت الجنة للمتقين) وجواب الشرط المتكرر في هذه الآيات هو قوله تعالى : – (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ) أي : – إذا وقعت هذه الأمور كلها حينئذ ، تعلم كل نفس ما عملت من خير ، وما عملت من شر .

وقوله سبحانه : – (فَلا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ) أي : – النجوم التي تخنس بالنهار أي تغيب وتختفي ، (الْجَوَارِ الْكُنَّسِ) النجوم تجري في منازلها في الليل ثم تكنس أخره أي تختفي عن الأنظار عند مغيبها عند طلوع الفجر ، (وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ) لفظ عسعس يصح استعماله في الإقبال والإدبار ، واستعماله في الإقبال هنا أرجح ليناسب ما بعده وهو : – (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) فيكون الرب سبحانه قد أقسم بإقبال الليل ، وإقبال النهار ، كما قال تعالى : – (والليل إذا يغشى والنهار إذا تجلي) وجواب القسم (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ) يعني : – جبريل عليه السلام ، أي ملك شريف حسن الخلق ، بهي المنظر ، (ذِي قُوَّةٍ) كما قال تعالى : – (علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى) (عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ) يعني : – أن له مكانة خاصة عند الله تعالى ، ومنزلة عالية ، وهو عليه السلام لذلك ، (مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ) أي : – مطاع هناك في الملأ الأعلى من الملائكة ، وهو عليه السلام أمين على ما حمل من الوحي ، وهذه تزكية من الله لرسوله الملكي أتبعها بتزكية رسوله البشري محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال : – (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ) فهو صاحبكم ، وأنتم أعلم الناس به ، فقد نشأ بينكم ، وترى في أكنافكم ، وأنتم الذين لقبتموه بالصادق الأمين ، وأنتم الذين شهدتم برجحان عقله حين حكمتموه بينكم فيما كنتم تختلفون ، فكيف تجعلوه الآن مجنون ، فإن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ، (وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ) يعنى : – رأى محمد صلى الله عليه وسلم معلمه الأمين جبريل ن وهو بالأفق البين الواضح ، لا يحول بين رؤيته شيء ، رآه على صورته الملائكية ، له ستمائة جناح قد سد بها الأفق ، و ذلك بالمرة الأولى بأجياد في مكة عند البيت العتيق ، (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) وذلك ليلة المعراج ، (وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ) قرأ لفظ : – (بضنين) بالضاد ، وقرأ بالظاء : – (بظنين)

فعلى القراءة الأولى : – يكون المعنى وما هو عن الغيب وهو الوحي الذي أوحاه الله إليه ببخيل بل هو يبذله لكل أحد ، ومن غير طلب ، فقد علمكم ما علمه الله وبلغكم ما أمراه الله أن يبلغه ولم يكتم شيئا ولا بخل بشيء .

وعلى قراءة الظاء : – (وما هو على الغيب بظنين) ، يكون المعنى وما هو بمتهم فيما بلغ فقد بلغه بأمانة من غير تبديل ولا تغير ، ولا زيادة ولا نقص .

(وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ) أي : – ليس القرآن من قول الشيطان ، ولا يقدر الشيطان عليه ، ولا يريده كما قال تعالى : – (وما تنزلت به الشياطين) وما ينبغي لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون ، (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ) هذا كقولك للرجل يضل عن الطريق أين أنت ذاهب ليس هذا طريقك ، الطريق هو هذا ، فالله يقول :– للقوم الضالين ، فأين تذهبون في تكذبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه ، وبيان كونه من عند الله حقاً ، وقوله تعالى : – (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ) أي : – هذا القرآن ذكر لجميع الناس ، لمن

شاء منكم أن يستقيم ، ومشيئة العبد مرتبطة بمشيئة الله وكل شيء يجري بتقدير الله تعالى ومشيئته ، ومشيئته تنفذ لا مشيئة للعباد إلا ما شاء لهم كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولذلك قال : – (وَمَا تَشَاؤُونَ إِلاَّ أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) .

أما سورة الانفطار

فقد استفتحت : – بقول ربنا سبحانه : – (إِذَا السَّمَاء انفَطَرَتْ) أي : – تصدعت ، وانشقت من هو ليوم القيامة ، كما قال تعالى : – (فكيف تتقون إن كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا السماء منفطر) .
(وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ) أي : – تساقطت من منازلها ، (وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ) فجر الله بعضها في بعض ، فاختلط عذبها بملحها ، أو حصل فيها انفجار ذري هائل ، (وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ) أي : – تحركت ، فألقت ما فيها ، كما قال تعالى : – (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور) أي : – أخرج من فيها من الأموات وكما قال تعالى : – (وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت و أذنت لربها وحقت) .
وقوله تعالى : – (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) هو جواب الشرط لما سبق ، وتقدير الكلام ، إذا حصل هذا كله ، علمت نفس ما قدمت وأخرت ، كما قال الله تعالى : – (فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ كَلاَّ لا وَزَرَ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ) .
وقوله تعالى : – (يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) أي : – ما غرك أيها الإنسان بربك الذي تكرم عليك ، ما غرك بربك راعيك ومربيك ، بإنسانيتك الكريمة الواعية الرفيعة .

يا أيها الإنسان ما الذي غرك بربك ؟
فجعلك تقصر في حقه وتتهاون في أمره ، ويسوء أدبك في جانبه ، وهو ربك الكريم الذي أغدق عليك من كرمه وفضلة ، ثم يفصل شيئاً من هذا الكرم الإلهي الذي أجمله في هذا النداء .
فيقول سبحانه : – (مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ) فأخرجك من العدم إلى الوجود ، ووهبك نعمة الوجود ، ومعنى قوله : – (فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ) أي : – سوى خلقك ، فما جعل أطول من يد ولا قدم أقصر من قدم وما جعل عين أوسع من عين ، ولا أذن أطول من أذن ، وإنما خلقك فسواك فعدلك أي جعلك سويا مستقيما معتدل القامة منتصبها في أحسن الهيئات والأشكال ، كما قال تعالى : – (ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم) وقوله سبحانه : – (فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ) أي : – في صورة أبائك أو في صورة أعمامك أو في أي صورة شاء ، كما قال : – (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) كيف يشاء هو ، لا كيف ما تشاءون أنتم ، فما غرك بربك أيها الإنسان وهذه أفضاله ، ما غرك بربك وهذه نعمة ، ما غرك بربك وهذا هو إحسانه ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، قال ابن عمرو رضي الله عنهما غره والله جهله ، وقال الله تعالى حكاية عن أهل الإيمان أنهم يقولون للمنافقين يوم ينادونهم انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا ورائكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة ، وظاهرة من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا : – بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم ، وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني ، حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور .
وقوله تعالى : – (كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ) أي : – إن الذي حملكم على التجرؤ على اله وإنكار نعمه ، وجحود فضلة ، هو أنكم تكذبون بالدين ، وهو جزاء الأعمال ، وتظنون أنكم غير محاسبين ولا مجزيين بأعمالكم ، وإذا قيل وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين .

وقوله تعالى : - (وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ) يعني : - يحفظون أعمالكم كلها ، دقها وجلها ، (كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) لا غيب عنهم من أعمالكم شيء كما قال تعالى : - (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) وقال تعالى : - (وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ) ومن علم الحفظة ، علمهم بإرادة العبد وما يهم به وإن لم يعمله ، ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال الله عز وجل : - " إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عمله فاكتبوها سيئة ، وإذا هم عبدي بحسنه فلم يعملها فاكتبوها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشر " .

ثم بين سبحانه وتعالى مآل الفجر ومآل الأبرار فقال سبحانه : - (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) الأبرار : - جمع بار ، وهو كل من جمع بين العقيدة الصحيحة والعمل الصالح ، كما قال تعالى : - (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) هؤلاء الأبرار في نعيم في الدنيا قبل نعيم الآخرة كما قال تعالى : - (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) فطيب الحياة : - هو نعيم الدنيا ، وهو شيء لا يعرف إلا بالمذاق ، ولقد بلغ الحال ببعض الصالحين أنه كان يقول : - إنه لتمر بالقلب أحوال .

أقول : - إن كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه إنهم لفي نعيم ، فهذا هو نعيم الدنيا ، وهذه هي الحياة الطيبة ، أمن ورخاء ، سعادة واستقرار أمان وطمأنينة ، يجدها الأبرار وإن ربطوا على بطونهم من الجوع الأحجار .

أما الفجار ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول : - (وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ) في جحيم في الدنيا قبل جحيم الآخرة ، كما قال تعالى : - (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا) فهم في جحيم وفي ضنك وفي هم وفي غم ، وأن لبثوا أحسن الثياب وركبوا أحسن المراكب ، وإن سكنوا القصور، وتزوجوا أجمل النساء ، لأن أفئدتهم هواء وأرواحهم خواء ، وشهوات الدنيا كلها لا توفر للروح الطمأنينة ولا توفر للقلب الراحة ، ما لم يكن عامر بذكر الله القائل : - (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فالبؤس والشقاء ، واليأس والتعاسة ، والقلق والاضطراب ، ها كله من جحيم الدنيا ، وأما جحيم الآخرة ، فإن الفجار يصلونها يوم الدين ، أي : - يصلون إليها فتغمرهم يوم الحساب والجزاء وما هم عنها بغائبين ، أي : - لا يغيبون عن هذا العذاب ساعة واحدة ، ولا يخفف عنهم العذاب ساعة واحدة .

ثم عظم الله سبحانه وتعالى أمر يوم الدين فقال : - (وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ) وهو سؤال لتعظيم شأن ذلك اليوم ، وإنما كرر تأكيداً لعظيم شأنه ، ثم فسره بقوله : - (يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا) ولو كانت ذا قربي كما قال تعالى : - (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا) وقال سبحانه : - (وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى) ، (يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ) ، كقوله تعالى : - (الملك يومئذ الحق للرحمن) وقوله تعالى وقوله الحق (وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ) ولله الأمر اليوم ، ويوم الدين ، ولكنه يومئذ لا ينازعه في أحد .

ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : - يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : - أنا الملك ، أين الجبارون ؟ ، أين المتكبرون ؟ ، ثم يطوي الأراضين بشماله ، ثم يقول : - أنا الملك ، أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟ .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الإجمالي

المحاضرة الرابعة عشرة

تفسير سور المطففين والإنشقاق والبروج والطارق

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آلـه وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير هذه السور : – المطففين ، والانشقاق ، والبروج ، والطارق .

تفسير سورة المطففين ، والإنشقاق ، والبروج ، والطارق .

أما سورة المطففين

فهي سورة مكية

تتألف من أربعة أقسام : –

١) يبدأ الأول بإعلان الحرب على المطففين .

٢) ثم يتلوه الثاني ، فيذكر مآل الفجار .

٣) ويله الثالث يتحدث عن مآل الأبرار .

٤) وأما القسم الرابع والأخير فإنه يذكر ما كان عليه الفجار من استهزاء بالأبرار .

وكيف أن الأبرار في الآخرة يسخرون من الفجار كما كانوا منهم يسخرون ، هل ثوب الفجار ما كانوا يفعلون .

قوله تعالى : – (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) هذا تبدأ السورة بإعلان الحرب من الله العزيز القهار على المطففين ، (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) أي : – ويل لهم من عذاب الله غد ، يوم هم على النار يفتنون .

ثم بين سبحانه وتعالى ، ما المراد بالمطففين فقال : – (الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ) والمعنى : – أن المطففين إذا أخذوا استوفوا الكيل والميزان ، وإذا أعطوا بخسوا الناس حقهم في الكيل والميزان ، وربما كـان عنـدهم كيلان وميزانان يأخذون بواحد ويعطون بالآخر ، وهذه جريمة أهلك الله بها أمة شعيب ، (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ وَمَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) إنه كان عذاب يوم عظيم ، ولقد كثر في القرآن الكريم الأمر بالوفاء ، والنهي عن التطفيف .

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : – " يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بـالله أن تـدركوهن ، وذكر من هذه الخمس قوله : – ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين ، وشدة المئونة وجور السلطان ، ثم قال سبحانه وتعالى : – منكراً عليهم هذه الجريمة ، وهي بخس الناس أشيائهم ، بطفيف الكيل والميزان " .

(أَلَا يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ) ألا يظن أولئك المطففون أنهم مبعوثون ليوم عظيم مقداره خمسون ألف سنة ، ألا يتقون هذا اليوم ، ألا يتقون من القيام بين يدي رب العالمين سبحانه ، الذي يعلم سرهم ونجواهم .

وقوله تعالى : – (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ) أي : – حفاة عراة غرلا في موقف ضيق حرج ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : – " يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب في رشحه " ، أي : – عرقه إلى أنصاف أذنيه ، فهلا اتقى المطففون هذا اليوم بترك التطفيف .

ثم قال تعالى : – (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ) وهم المتجاوز للحد في المعصية والإثم ، ومنهم المطففون ، (إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ) وهو المكان الضيق جدا .

(وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ) سؤال لتفخيم الشأن ، أي : – أنه أمر عظيم ، سجين : – مقيم وعذاب أليم.

وقوله تعالى : – (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ) متعلق بما قبل السؤال ، متعلق بقوله تعالى : – (إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ) وليس جواباً للسؤال ، والمعنى إن كتاب الفجار : – (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ) أي : – مكتوب مقروء منه ، لا يزاد فيه ولا ينقص منه ، وهذا الكتاب في سجين

وقوله تعالى : – (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) أي : – ويل لهم إذا صاروا إلى ما أوعدهم الله به من السجن ، ويل لهم حين يقال لهم انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون ، انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب .

وقوله تعالى : – (وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ) يعني : – أنه لا يكذب بيوم الدين ، إلا كل معتد في أفعاله ، أثيم في أقواله فهذا الذي يكذب بيوم الدين ، لأنه : – يعلم ماله يوم الدين من العذاب الأليم ، فلذلك هو يكذب به ، ليبعد عنه شبح هذا العذاب الذي ينتظره ، ليظل متمادياً في عدوانه وطغيانه ، كما قال تعالى : – (بَلْ يُرِيدُ الإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ) .

وقوله تعالى : – (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) يعني : – إن هذا المعتدي الأثيم إذا سمع آيات الله تتلى عليه ، اتخذها هزوا ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها في تملى عليه بكرة ، وأصيلا ، ولم يكتفوا بهذا بل تجرئوا فقال : – (قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ) قال تعالى : – (كَلاَّ) ليس الأمر كما يقولون بل القرآن تنزيل من الرحمن الرحيم ، لئن اجتمعت الإنس والجن لأن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ثم يكشف ربنا سبحانه عن العلة الحقيقية التي جعلتهم يكذبون بيوم الدين ، ويكذبون بكلام رب العالمين فيقول سبحانه : – (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ) يعني : – أنهم أسرفوا على أنفسهم حتى أحاطت بهم خطيئتهم وغطت قلوبهم ، فأصبحوا لا يفقهون حديثا ، ولا ينكرون منكرا ، ولا يعرفون معروفا وهذا هي النتيجة الحتمية للذنوب إذا لم يقلع الإنسان عنها .

وقوله تعالى : – (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ) يعني : – أنهم لما حجبت المعاصي قلوبهم عن رؤية الله في الدنيا ، عوقبوا فحجبوا عن رؤيته سبحانه في الآخرة ، جزاءا وفقا وما ربك بظلام للعبيد .

وقد استدل الإمامان مالك والشافعي رحمهما الله : – على رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة بحجب الكافرين عن رؤيته ، فقالا : – لما حجب عن رؤيته أعدائه ، كان لابد أن يكرم برؤيته أولياءه ، حتى قال الإمام الشافعي ، لو لم يعتقد محمد ابن إدريس أنه يرى ربه في الآخرة ما عبده ، والإيمان بالرؤية من عقيدة أهل السنة .

ولذا قال الإمام الطحاوي رحمه الله : – والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ، ولا كيفية ، كما نطق به كتاب ربنا (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) .

وقوله تعالى : – (ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ) يعني : – ثم هم مع الحرمان من رؤية الرحمن ، من أهل النار ، (ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ) ، كما قال تعالى : – (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) .

وقوله تعالى : – (كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ) يعني حقاً إن كتاب الأبرار ، وهم الذين جمعوا بين العقيدة الصحيحة والعمـــل الصالح ، كما سبق بيانه لفي عليين ، أي: – مصيرهم إلى عليين ، بخلاف الفجار فمصيرهم إلى سجين ، وقوله تعالى : – (وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ) .

سؤال لتفخيم شأنه وتعظيم أمره ، (كِتَابٌ مَّرْقُومٌ) وقد تبين معناه فيما سبق .

(يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ) يعني : – يشهده المقربون من الملائكة التي في السماء ، وذلك من باب إظهار الشرف والفضيلة والكرامة ، كما أهم لو أخذ أحدهم كتابه بيمينه قال : – (هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ) لنفس الغرض .

وقوله تعالى : – (إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ) سبق المراد بهذا النعيم في تفسير سورة الانفطار ، (عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ) ينظرون إلى سعة ما هم فيه ، وينظرون إلى الرب عز وجل ، (تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ) أي : – إذا نظرت في وجوههم عرفت من جمالها وبهائها ما هم فيه من النعيم العظيم ، من الطرف والسرور والرياسة .

(يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ) الرحيق : – من أسماء خمر الجنة ، وهو مختوم بالمسك

قال العلماء : – إما أن يكون المراد بقوله ختامه مسك يعني : – أن القارورة قد ختمت في أعالها بخاتم المسك دليلاً على أها لم تفتح من قبل ، ولم تمسها أيد ، فإذا كان هذا الختام مسكاً ، فكيف بالمشروب ، الداخلي ، وإما أن يراد بقوله : – ختامه مسك ختام الشراب ، وهو الفضلة التي يتركها الشارب في قعر الكأس فإذا كانت هذه الفضلة مسكاً فكيف بأعلاها ، (وَفِي ذَلِكَ) النعـــيم المـــذكور (فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) فهذا الذي ينبغي أن يتنافس فيه الناس لا حطام الدنيا الزائل كما يفعل جهال الناس ، وهذه الآية كقوله تعالى ، بعد ما ذكر نعيم أهل الجنة : – (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ) .

(وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ) يعني : – أن الرحيق الموصوف ممزوج من شراب يقال له تسنيم ، وهو أشرف شراب أهل الجنة ، وقوله تعالى : – (عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ) يعني : – أن الأبرار يمزج لهم الرحيق بالتسنيم ، أما لمقربون فيشربون التسنيم وحده غير ممزوج ولا مخلوط .

وقوله تعالى : – (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ) أي : – إذا مر أحد المؤمنين بالمجرمين غمزه بعضهم بعضا استهزاء وسخرية ، ثم لا يجدون في صدورهم حرجاً مما يعملون .

(وَإِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ) ، مسرورين بما فعلوا من السخرية والاستهزاء بالمؤمنين ، (وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَـــالُوا إِنَّ هَـــؤُلاء لَضَالُّونَ) وذلك أثر من أثار الران الذي غطى قلوبهم ، كما قال تعالى : – (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ) .

قال تعالى : – (وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ) يعني : – ما كلفناهم بمراقبتهم ، وحفظ أعمالهم فلما شغلوا أنفسهم بهم ، ثم قال تعالى : – (فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ) .

قال العلماء : – بين أهل الجنة ، وأهل النار طاقات ، متى شاءوا أن يفتحوها فتحوها فيسخرون منهم كما كانوا منهم يسخرون .

وقوله تعالى : – (عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ) قد سبق بيانه .

ثم ختم الله تعالى السورة بقوله : – (هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) يعني : –

هل جزي الكفار على ما كانوا به يستهزؤون ؟

نعم قد جوزوا أوفر الجزاء ، وأتمه .

وهذه الآيات كقوله تعالى حكاية عن أهل النار : – (قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَؤُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُون إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ) .

أما سورة الانشقاق

فهي السورة الثالثة بعد التكوير والانفطار ، اللاتي قال فيهن النبي صلى الله عليه وسلم ، من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ : – (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) ، (إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ) ، (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ) .

قوله تعالى : – (إِذَا السَّمَاء انشَقَّتْ) يعني : – يوم القيامة كما قال تعالى : – (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ) ، وقوله تعالى : – (وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا) أي : – سمعت وأطاعت (وَحُقَّتْ) وحق لها أن تسمع وتطيع ، لأنها من خلق الله ، ولا يحق لمخلوق أن يعصي خالقه ، (وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ) أي : – سويت فلم يبقى فيها عوجا ولا أمت ، كما قال تعالى : – (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا) .

وقوله تعالى : – (وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) أي : – ألقت ما في بطنها من الأموات ، وتخلت عنهم ، كما قال تعالى : – (إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا) .

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) أي : – سمعت وأطاعت ، لأمر ربها ، وحق لها أن تسمع وتطيع ، وجواب الشرط في هذه الآيات محذوف ، استغناء عنه بما ذكر في سورة الانفطار ، والتكوير (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ) (عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ) .

وقوله تعالى : – (يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ) الإنسان هنا : – هو عموم الإنسان المؤمن والكافر ، فالمؤمن يكدح والكافر يكدح ، والكدح : – هو الجهد والمشقة في العمل ، وكل إنسان كادح كما قال تعالى : – (لقد خلقنا الإنسان في كبد) أي : – في تعب ومشقة ، والعاقل من جعل تعبه وكدحه في سبيل الله ، حتى إذا مات استراح ، واليائس البائس من كان تعبه لغير الله ، فإذا مات شقي في العذاب شقاءً أشق من شقاء الدنيا .

في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم : – " أنه مر عليه بجنازة ، فقال : – مستريح أو مستراح منه ، فقالوا : – يا رسول الله ما المستريح ؟ والمستراح منه ؟ قال : – العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله ، والعبد الفاجر ، يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب " . ولذا قال تعالى حكاية عن أهل الجنة : – (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ) .

وقوله تعالى : – (فَمُلاقِيه) . قال العلماء : – الضمير صالح للعود على الكدح فيكون المعنى أن كل إنسان سيلاقي عمله . كما قال تعالى : – (يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ) . كما أن الضمير صالح للعود على الرب عز وجل والمعنى : – أن الإنسان سيلاقي ربه ، وسيجزيه بعمله ، وعلى كل حال فإن لقاء العمل ، لا يكون إلا بعد لقاء الله (كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) ويومئذ إذا تتطاير صحف الأعمال ، (فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) ، يعني : – يعرض على الله فيعفوا عنه ، ولا يدقق عليه في الحساب .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : – " من نوقش الحساب عذب ، فقلت : – أفليس قال تعالى : – (فسوف يحاسب حساباً يسير) ، فقال : – ليس ذلك بالحساب ، وإنما ذلك العرض ، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب " .

وقوله تعالى : – (وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا) أي : – يرجع إلى أهله في الجنة فرحاً مغتبطاً بما آتاه الله .

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا) أي : – خساراً وهلاك ، كما قال تعالى : –(بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا) .

(وَيَصْلَى سَعِيرًا) فصله في موضع أخر فقال : – (خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ) وذكر هنا سبب هلاكه فقال : – (إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا) لا يفكر في العواقب ، ولا يخاف مما أمامه على خلاف المؤمنين الذين هم من عذاب ربهم مشفقون ، إن عذاب ربهم غير مأمون .

(إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ) أي : – كان يعتقد أنه لا يرجع إلى الله ، وأن الله لا يعيده ، كما كان ، وأن الله لن يعيده كما كان (بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا) بلى سيعيده الله كما كان ، وسيجزيه بعمله ، فإنه كان به بصيراً عليماً خبير .

وقوله تعالى : – (فَلا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ) وهو هذه الحمرة التي تكون بعد الغروب ، (وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ) أي : – وما جمع وضم تحت ظلمته (وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ) أي : – تم وصار بدراً ، (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ) هذا هو جواب القسم .

وللعلماء فيه أقوال كثيرة ، بلغت سبعة وعشرين قولاً ، ولعل أرجحها لتنتقلن أيها الناس يوم القيامة من مشهد إلى مشهد ومن موقف إلى موقف ، ومن حال إلى حال .

وقوله تعالى : – (فَمَا لَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لا يَسْجُدُونَ) هذا تعجب من كفر الكافرين الذين يكذبون بيوم الدين ، والقرآن يتلى عليهم بأي حديث بعده يؤمنون .

وقوله تعالى : – (بَلِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ) أي : – من طبعهم التكذيب والعناد والمخالفة ، ولو أرادوا الإيمان لآمنوا بهذا القرآن ولكن هذا دأبهم ، وتلك سجيتهم ، (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ) أي : – بما يكتمون في صدورهم ، (فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) وليست هذه بشارة ، وإنما هو تهكم وسخرية ، فإن البشارة تطلق على ما يفرح ويسر حتى يظهر السرور على البشرة ، والمعنى فأخبرهم بأن الله قد أعد لهم عذاب أليما .

(إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) يعني : – لكن الذين آمنوا بقلوبهم ، وعلموا الصالحات بجوارحهم فلهم في الآخرة أجر دائم لا ينقطع كما قال تعالى : – (عطاء غير مجذوذ) .

أما سورة البروج

فهي سورة مكية ، أفردت للحديث عن تضحية المؤمنين ، في كل زمان من أجل الدين ، تشجيعاً للنبي صلى الله عليه وسلم ، وللمؤمنين على التضحية ، وحثاً لهم على الصبر على الأذن فإن الله جاعل العاقبة لهم كما جعلها لإخوانهم من قبلهم .

(وَالسَّمَاء ذَاتِ الْبُرُوجِ) الواو : – للقسم ، والمعنى : – أقسم بالسماء ذات البروج ، وهي منازل الكواكب والنجوم ، وهي بمنزلة القصور المشيدة ، وقوله تعالى : – (وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) فسرها النبي صلى الله عليه وسلم فقال : – " اليوم الموعود : – يوم القيامة ، والشاهد : – يوم الجمعة ، والمشهود : – يوم عرفة " ، وجواب القسم محذوف تقديره : – (إن ما جاء في هذه السورة لحق ، أو إن انتقام الله ممن عذب أولياؤه لواقع) ولـ هكذا قال بعد هذا القسم (قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ) أي : – لعنوا ، والأخدود والخندق الذي يحفر بالأرض ، وأصحاب الأخدود :– جنود لملك ظالم كان الناس يعبدونهم من دون الله ثم هداهم الله فآمنوا بالله وكفروا بالملك ، فأمر أصحابه فخدوا الأخاديد ، وأضرموا النيران ، وقال لهم : – من رجع عن دينه فاتركوه ومن أبى فأقحموه فيها ، ثم جلس ينظر إلى المؤمنين وهم يلقون في النار ، فجمعوا بذلك بين الظلم وقسوة القلب ، قال تعالى : – (قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ) أي : – ما عابوا عليهم ، (إِلاَّ

أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) فهو رب كل شيء ومليكه ، وهو المستحق للعبادة دون سـواه ، فكما أنه لا رب غيره ، فكذلك لا معبود سواه ، (وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ) ، يعني : – أنه لم يخفى عليه سبحانه ما فعله هـؤلاء الطغاة بأوليائه المؤمنين ، فلقد رآهم ، وشهد ما فعلوه بهم من التعذيب والتحريق ، وسيجزيهم بمثل ما فعلوه بأوليائه ، ولذا قال تعالى : – (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ) ولكن انظروا إلى لطف اللطيـف ، وكرم الكريم سبحانه ، إنه حين يتوعدهم يعلق وعيده بعدم توبتهم فيقول : – (وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا) ومعناه : – أنهم إن تـابوا بعد هذه الجريمة العظيمة تاب عليهم ، وفي هذا إرشاد لجميع العصاة والمذنبين ، إلى أنه لا يجوز القنوط من رحمة الله أبداً إن الله يغفـر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم .

وقوله سبحانه : – (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ) بيان لمـا أعـد الله لأوليائه بعد بيان ما أعده لأعدائه قتلة أوليائه .

ثم يقول تعالى مطمئنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، ومتوعداً من كذبه : – (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) يعني : – إن بطش ربك يا نبينا ، وانتقامه من أعدائه الذين أذوك وكذبوك لعظيم قوي شديد ، فاصبر كما صبر ألوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم إنما نعد لهم عد .

وقوله تعالى : – (إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ) يعني : – إنه سبحانه يبدأ الخلق ويعيدهم كما خلقهم ، وهذا من تمام قدرته ، وهو أخـذهم وتعذيبهم إذا يشاء قدير ، (وَهُوَ) مع هذه القدرة (الْغَفُورُ) لمن تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى ، (الْوَدُودُ) الذي يتحبب إلى أوليائه فيحبهم ويحبونه ، وهو سبحانه : – (ذُو الْعَرْشِ) أي : – صاحب العرش العظيم ، الذي من عظمته أن الكرسي الذي هو بين يديه كالمرقاة إليه وسع السماوات والأرض فكيف بالعرش نفسه ، (الْمَجِيدُ) الذي هو أهل الثناء ، كما مجد نفسه ، وهو الممجد علـى اختلاف الألسن وتباين اللغات بأنواع التمجيد ، وهو سبحانه (فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ) فما شاء كان ، وإن لم يشأ العباد ، وقوله تعالى : – (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ) أي : – هل بلغك ما أحل الله بهم من البأس وما أذاقهم من العذاب لما كذبوا رسـلهم ، فاصبر على أذى قومك فإنهم إن لم يؤمنوا حاق بهم من العذاب مثل ما حاق بفرعون وثمود أو أشد ، وقوله تعالى : – (بَـلِ الَّـذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ) أي : – هم في شك وريب ، وكفر وعناد ، (وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ) قد أحاط بهم علماً وأحاط بهم قدرة ، وهم في قبضته سبحانه لا يعجزونه ، (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ) من الزيادة والنقصان ، والتحريف والتبديل ، وعد الله لا يخلف الله وعده كما قال : – (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

أما سورة الطارق

فهي سورة مكية ، وهي قسمان : –

الأول : – يتحدث عن البعث وأدلته

والثاني : – يتحدث عن القرآن وصدق النبي عليه السلام .

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) هكذا استفتحت السورة : – بالقسم من الله عز وجل بالسماء ، وهي مشاهدة معروفة ، والطارق : – مأخوذ من الطرق ، وأصله الضرب ، ومنه سميت مطرقة الصائغ أي : – الحداد لأنه يطرق بها أي : – يضرب بها ، وقد فسـر الله تعـالى الطارق الذي أقسم به بقوله : – (النَّجْمُ الثَّاقِبُ) أي : – الذي يثقب الظلام بضوئه وقيل ، كل نجم طارق لأن طلوعه بالليل وكل ما أتى بالليل فهو طارق ، (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ) سؤال لتفخيم أمره ، وتعظيم شأنه ، وجواب القسم (إِن كُلُّ نَفْـسٍ لَّمَّـا عَلَيْهَا حَافِظٌ) .

والحفظة نوعان : –

١) حفظة الأعمال .

٢) وحفظة الأبدان .

أما حفظة الأعمال : – فهم الذين سبق ذكرهم في سورة الانفطار ، (وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون) .

وأما حفظة الأبدان : – فهم الذين قال الله فيهم (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) وهذا من لطف الله بعباده ، وكل بهم حفظة يحفظونهم من المصائب والآفاك ، فإذا جاء القدر تخلوا عنهم ليصيبهم ما كتب لهم .

وقوله تعالى : – (فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ) تنبيه للإنسان على ضعف أصله ، الذي خلق منه ، وإرشاد له بالاعتراف بالميعاد لأن : – من قدر على البدأة فهو قادر على الإعادة بطريق أولى ، كما قال سبحانه : – (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) .

وقوله تعالى : – (خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) يعني صلب الرجل ، وترائب المرأة كما قال : – (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج) أي : – مختلطة من ماء الرجل ، وماء المرأة .

وقوله تعالى : – (إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) يعني : – إن الله تعالى قادر على إعادة هذا الإنسان بعد موته كما ابتدأ خلقه ، ولذلك قال : – (أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ) ومتى تكون الإعادة والرجعة قال : – (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ) وينكشف المكنون ويحصل ما في الصدور . نسأل الله تعالى أن يسترنا بستره .

وقوله تعالى : – (فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ) أي : – فما للإنسان من قوة من نفسه ، تدفع عنه عذاب الله ، وما له من ناصـــر مـــن أصدقائه وخلانه ، وأهله وجيرانه .

وقوله سبحانه : – (وَالسَّمَاء ذَاتِ الرَّجْعِ) أي : – ذات المطر الذي يرجع كل عام ، (وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ) أي : – يصـــدعها النبات ، أي : – يشقها .

(إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ) يعني : – إن القرآن هو القول الفصل الذي يفصل في كل قضية ويتكلم في كل خلاف ، وهـــو لا يلتبس بالهزل أبدا .

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا) . كما قال تعالى : – (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) إنهم يكيدون كيدا (وَأَكِيـــدُ كَيْـــدًا فَمَهِّـــلِ الْكَافِرِينَ) أي : – أنظرهم ولا تستعجل لهم (أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا) أي : – قليلاً ، وسترى ما يحل بهم من العذاب ، ولو أمهلهم الـــدنيا كلها لكانت قليلاً .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الإجمالي

المحاضرة الخامسة عشرة

تفسير السور الأعلى والغاشية والفجر والبلد

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آلــه وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير هذه السور : – الأعلى ، والغاشية ، والفجر ، والبلد . فنقول وبالله تعالى التوفيق : –

سورة الأعلى ، والغاشية ، والفجر ، والبلد .

سورة الأعلى

سورة مكية ، كان الرسول صلى الله عليه يقرأ بها في إحدى ركعتي العيد ، والجمعة ، وإذا اجتمع في يوم واحد قرأ بها أيضا في إحدى الركعتين .

استفتحت : – بالأمر بتسبيح الله العلي الأعلى ، ثم ذكرت بعض مظاهر قدرة الدالة ، على استحقاقه للتسبيح بحمده . ثم ذكــرت الوحي ، وصفة تلقى النبي صلى الله عليه وسلم له ، وكيف كان يتعجل بالقراءة فنهاه الله عن ذلك ، فقال : – (سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى) وأمره أن يذكر بالقرآن متى أراد أن تنفع الذكرى ، وبين سبحانه من ينتفع ومن لا ينتفع من الحق .

ثم ختمت السورة : – بالإشارة إلى أن الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة سببه تزكيه النفس والمحافظة على الصلاة التي هي عمــود الدين ، ولكن أكثر الناس عن هذا غافلون لأنهم يؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير لهم لو كانوا يعلمون ، وهذه الحقائق التي تضمنتها السورة الكريمة ، قد تضمنتها من قبل صحف إبراهيم وموسى .

قوله تعالى : – (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى) التسبيح معناه : – التتريه عن المناقص ، والمعايب ، وقد اختلف العلماء هل المراد تســبيح الاسم ، أم تسبيح الرب ؟ وأصح الأقوال أن الله تعالى أمر هنا بتسبيح اسمه الأعلى ، وأمر في مواضع أخرى بتسبيح ذاته ســبحانه ، فقال : – (وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ) وتسبيحه تعالى معناه : – تتريهه عن كل ما لا يليق بجلاله ، لأن له سبحانه الكمــال المطلق ، وأما تسبيحه اسمه تعالى ، فيكون : – بتتريه أسمائه تعالى عن تسميه غيره ، وتتريه أسمائه تعالى عن النطق بها في حــال اللــهو والعبث ، وتتريه أسمائه سبحانه عن الأماكن الخبيثة ، وقوله سبحانه : – (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى) في هذا الاسم إشــارة إلى علــوه سبحانه وتعالى فوق خلقه ، كما أن من أسماءه تعالى العلي ، قال تعالى : – (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) فالعلي والأعلى يدلان على علــوه سبحانه وتعالى فوق خلقه ، وقد صرح بذلك في مواضع كثيرة من كتابه وقوله سبحانه : – (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) أي : – خلق كل شيء فسواه وحسنه وجمله .

(وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) أي : – قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلقهم ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدر له ، كما قال موسى عليه السلام ، وقد سأله فرعون فمن ربكما يا موسى ، فكان مما قاله موسى عليه السلام ، ربنا الذي أعطي كل شيء خلقه ثم هدى ، أي : – قــدر مقادير الخلائق وهداهم إلى ما قدر لهم .

وقوله تعالى : – (وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى) المرعي معروف : – وهو ما ترعاه النعم ، وغيرها من الدواب ، وهو يكون أخضر يانعاً ثم يجعله الله غثاء أحوى أي يابساً أسود هشيماً متغير ، وفي هذا إشارة إلى أن كل نبات إلى حصاد وكل حي إلى موت ، وهي إشارة ضمنية قد جعلها الله تعالى مثلاً للدنيا حتى لا يغتر بها الناس كما قال سبحانه : – (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) .

وقوله تعالى : – (سَنُقْرِؤُكَ فَلا تَنسَى إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ) إخبار من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ووعد منه له ، بأنه سيقرئه قراءة لا ينسى منها إلا ما شاء الله ، وكان عليه الصلاة والسلام ، إذا جاءه جبريل يقرأ عليه القرآن ، يتعجل بالقراءة معه حتى لا ينسى فنهاه الله عن ذلك فقال : – (وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ) .

وقوله سبحانه : – (إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى) يعني : – إنه سبحانه يعلم ما يكون من عبادة كل حال ، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، (وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى) وعد من الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن ييسره لليسرى في أموره كلها ، في دينه ودنياه ، وقد صدق الله وعده ، ويسر نبيه لليسرى وله الحمد والمنة .

وقوله تعالى : – (فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى) .

قال العلماء : – إن شرطية ، إن نفعت الذكرى فذكر .

وقسموا المدعوين إلى ثلاثة أقسام : –

١) قسم مقطوع بانتفاعه .

٢) وقسم مقطوع بعدم انتفاعه .

٣) وقسم يرجى انتفاعه .

فالأول : – هم المؤمنون الذين قال الله فيهم : – (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) وهؤلاء يجب تذكيرهم .

والقسم الثالث : – يذكر لعله ينتفع فمن ترجو أن ينتفع فذكره .

وأما القسم الثاني : – فهذا قد أمر الله نبيه بالإعراض عنه ، فقال : – (فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) ذلك مبلغهم من العلم ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى .

وقوله تعالى : – (سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى) كقوله : – (إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ) فأهل الخشية هم أهل الانتفاع بالذكر ، وقوله تعالى : – (وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى) يعني : – الكافر ، فإن الكافرين قال فيهم رب العالمين : – (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) ، وقال : – (وَإِذَا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ) وقال : – (وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ) وقوله تعالى : – (الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى) . أي : – يدخلها فتغمره من جميع الجهات ، ويأته الموت من كل مكان ، (ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا) فيستريح ، (وَلا يَحْيَى) فيها حياة طيبة .

وقوله تعالى : – (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى) أي : – من طهر نفسه من دنس الكفر والشرك ، وسائر المعاصي والأخلاق الرذيلة ، وذكر اسم ربه فصلى أي : – أقام الصلاة في أوقاتها طاعة لله تعالى وامتثال لأمره ورغبة في ثوابه ، وقيل إن المراد بقوله تعالى : – (قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) زكاة الفطر وصلاة العيد .

وقوله تعالى : - (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أي : - تقدمونها على الآخرة ، (وَالآخِرَةُ خَيْرٌ) من الحياة الدنيا كلها ، (وَأَبْقَى) والحياة الدنيا فانية .

قال بعض السلف : - لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى ، لآثرت العقول السلمية الآخرة على الدنيا ، فكيف والآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من حذف يفنى .

وقوله تعالى : - (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) يعني : - إن هذا المذكور في السورة أو في هذه الجملة الأخيرة قد كان من قبل في صحف إبراهيم وموسى .

أما سورة الغاشية

فهي سورة مكية .

تناولت موضوعين أساسيين : -

الأول : - القيامة وأهوالها ، وانقسام الناس يومها قسمين : -

١) فريق في الجنة .

٢) وفريق في السعير .

والثاني : - مظاهر قدرة الله تعالى ووحدانيته .

قوله تعالى : - (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) وهي الداهية العظيمة ، التي تغشى الناس جميعا ، والمراد بها الساعة ، كما قال تعالى : - (بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ) والسؤال للتشويق والترغيب في الاستماع .

وقوله تعالى : - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ) أي : - ذليلة ومهانة ، وخاضعة ، (عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ) أي : - تعمل في النار عملاً يصيبها منه النصب والتعب ، وعمل أهل النار ، أعاذنا الله والمسلمين ، هو صعودهم فيها إلى جبال عالية ، ثم نزولهم ، وهكذا ، كما قال تعالى : - (سأرهقه صعودا) (تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً) أي : - حارة شديدة ، (تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ) كما قال تعالى : - (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ) أي : - شديد الحر قد انتهت درجة غليانه .

(لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ) وهو نبتة تنبت في البادية ، يعرفها العرب ويسمونها الشبرد ، تأكلها الإبل خضراء ، فإذا يبست سميت الضريع ، وصارت سامة ، فلا تأكلها الإبل ، (لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ) .

والإنسان يأكل الطعام لغرضين : -

١) ليسد الجوع .

٢) وليسمن .

وطعام أهل النار لا يحقق لهم شيئاً من ذلك .

وقوله سبحانه وتعالى : - (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ) وجوه يومئذ ناعمة أي : - يعرف فيها النعيم ، لسعيها راضية ، أي : - أنها رضيت عما قدمته في الدنيا ، من طاعة الله سبحانه وتعالى : - (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ) أي : - رفيعة بهية ، في غرفات بعضها فوق

بعض ، (لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً) أي : – لا فيها لغو ، ولا زور ولا كذب ولا صخب ، ولا ضجيج ، إنما سكون تام ، وهدوء تـــام ، والكلام المسموع فيها كله سلام ، وأمان وهذه نعمة يقدرها أهل الجنة ، الذين هم عن اللغو معرضون ، وهذا من النعـــيم المعنـــوي الروحي ، فهم فرحون بهذا النعيم فرحهم بغيره من نعيم الجنة الحسي أو يزيد .

وقوله تعالى : – (فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ) أي : – سارحة ، (فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ) أي : – عالية رفيعة ، ناعمة كثيرة الفرش ، عليها الحور العين ، (وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ) أي : – حاضرة ، مصفوفة ، لا يطلبونها ، لأنها حاضرة دائمة . (وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَـــةٌ) النمارق : – هي الوسائد ، والزرابي : – هي البسط والسجاجيد ، وهي أسماء مشتركة بين ما في الجنة ، وما في الدنيا ، وشتان بـــين المسمى ، والمسمى .

ثم لفت الله تبارك وتعالى ، أنظار العرب المشركين إلى بعض مظاهر قدرة الدالة على وحدانيته التي لا تكلفهم بحثاً ، ولا عناء ، ولا سفر ، فقال : – (أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ) .

وإنما خصت الإبل بالذكر : –

١) لأنها تختلف في خلقها عن خلق سائر الأنعام .

٢) وهي أنفس أموال العرب وأحبها إليهم .

٣) وهي سفينة الصحراء كما يسمونها .

(وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلا بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) .

(وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ) من الذي رفعها ، ومن الذي يمسكها أن تقع على الأرض ، (وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِـــبَتْ) لألا تميـــد الأرض بأهلها (وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) وبسطت ومدت ومهدت ، فنبه البدوي على الاستدلال مما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه ، والسماء التي فوق رأسه والجبل الذي تجاهه ، والأرض التي تحته ، على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظـــيم الخالق المالك المتصرف ، وأنه الإله الذي يستحق العبادة دون سواه .

ولما لفت الله أنظار العباد إلى مظاهر قدرته ، أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يذكر فقال : – (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) فكرهم بأيام الله ، وذكرهم بآياته ، وذكرهم بنعيم الجنة لعلهم يطمعون فيها فيؤمنوا ، وذكرهم بعذاب النـــار عســـاهم يخشونها فيقلعوا عن الكفر ، (إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ) ليس عليك هداهم ، (لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ) فأنت لا تملك قلوب العباد حـــتى تقهرها على الإيمان ، وحتى تجبرها على إتباعك .

(إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ) يعني : – من تولى عنك وكفر بما جئت به فسوف يعذبه الله العذاب الأكبر : – يعني عذاب جهنم .

فالله تعالى يعذب الكافرين في الدنيا بأنواع من العذاب مختلفة : –

١) يعذبهم بالبأساء والضراء .

٢) بالأمراض والأوجاع .

٣) بالقتل والتعذيب والتشريد . ونحو ذلك .

فمن تاب منهم تاب الله عليه ، ومن كفر رد إلى العذاب الأكبر في الآخرة ، كما قال تعالى : – (وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) ، (إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ) أي : – مرجعهم ، (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ) فمن يعمل مثقال ذرة خير يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، وما ربك بظلام للعبيد .

أما سورة الفجر

فهي سورة مكية ، استفتحت بالقسم من الله عز وجل .

ثم تحدثت عن ثلاثة أمور : –

الأول : – مصارع الغابرين .

الثاني : – سنة الله في ابتلاء الناس بالخير والشر .

الثالث : – أهوال يوم القيامة .

استفتحت الله السورة : – بالقسم فقال : – (وَالْفَجْرِ) وهو معروف وهو الصبح ، وقد أقسم الله بالصبح (وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ) .

(وَلَيَالٍ عَشْرٍ) عشر ذو الحجة ، أقسم الله تعالى بها ، لفضيلتها ومكانتها الخاصة ، التي بينها النبي صلى الله عليه وسلم ، حيث قال : – " ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى من هذه العشر ، يعني : – عشر ذي الحجة ، قالوا : – ولا الجهاد في سبيل الله يا رسول الله ، قال : – ولا الجهاد في سبيل الله ، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء " .

(وَالشَّفْعِ) الزوج ، (وَالْوَتْرِ) هو الفرد .

وقد ذكر المفسرون : – في المراد بها أقاويل كثيرة ، وأرجحها أنه يجب إبقاء اللفظ على عمومه لأن الله تعالى لم يخص شفعاً دون شفع ، ولا وتر دون وتر ، فكل شفع هو داخل في عموم هذا القسم ، وكذلك كل وتر .

وقله تعالى : – (وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ) أي : – يذهب بظلامه ، كما قال : – (وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ) فمتى جاء الفجر ، ذهب الليل .

وقوله تعالى : – (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ) الحجر : – هو العقل ، وسمي العقل حجرا : – لأنه يحجر صاحبه ، أي : – أن يمنعه من الفواحش ، يقال : – حجر الحاكم على فلان ، إذا منعه من التصرف في ممتلكاته لدين أو غيره ، وهذا السؤال بعد ذلك القسم كقولك لإنسان قد وضحت له مسألة فأتيت عليها بكل برهان ، ثم قلت له : – أتكفيك هذه البراهين ، وأنت لا تريد بسؤالك هذا إلا إلزامه تعنى أنه ليس له بعد هذا البيان بيان ، ولا بعد هذه البراهين براهين .

ثم لفت الله تبارك وتعالى الأنظار إلى مصارع الغابرين ، تحذير للمكذبين ، أن يصيبهم مثل ما أصاب الأولين ، وجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، تثبيتاً لقلبه ، وربطاً على فؤاده ، حتى يعلم أن العاقبة له كما كانت لإخوانه المرسلين ، (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ) إِرَمَ بدل من عاد ، وكان القوم ذوي أجسام طويلة حتى قيل : – كان طول الرجل ، اثني عشر ذراع ، وعليه فلا بد أن تكون البيوت عاليه ، مما يستلزم طول العماد ، وقد كانوا أولي قوة وأولي بأس شديد ، ولذا قال تعالى : – (الَّتِي لَمْ

يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ) ، ولم يذكر الله تبارك وتعالى هنا ما فعل بهم ، ولكنه ذكره في مواضع كثيرة منها قوله تعالى : – (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ) .

(وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ) أي : – قطعوا الصخر ، واتخذوا البيوت ، يقال : – جاب فلان البلاد إذا قطعها . (وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ) .

قال بعض العلماء : – المراد بالأوتاد : – الجنود الذين يثبتون الملك ، كما تثبت الخيمة الأوتاد .

وقال بعضهم : – إن فرعون كان إذا عذب أحد مد له أربعة أوتاد ، وجعل كل طرف من أطرافه في وتد ، وأمر زبانية أن يرموه بالصخر والحجارة حتى الموت .

وقال بعضهم : – المراد بالأوتاد : – الأهرامات لأنها تشبه الأوتاد .

(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ) الطغيان : – هو مجاوزة الحد ، والطغاة يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، ولذا قال تعالى : – (فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) وقد فصل الله تبارك وتعالى كيف كان أخذه لأولئك الطغاة ، فقال : – (فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا) .

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) لكل ظالم ، ولكل طاغية ، فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله ، إن الله عزيز ذو انتقام ، ولا تحسبن الله غافل عما يعمل الظالمون .

ثم قال تعالى : – (فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلاَّ) ليس الأمر كما قال ، لم يكرم الله تبارك وتعالى من وسع عليه رزقه ، ولم يهن من قدر عليه رزقه ، فإن الله يوسع على من يحب ومن لا يحب ، ويقدر لمن يحب ومن لا يحب ، وربما وسع على من لا يحب وقدر لمن يحب ، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو خليل الله يربط الحجر على بطنه من الجوع ، وكان يمر الهلال ثم الهلال ثلاثة أهله في شهرين وما يوقد في بيت من بيوت رسول الله نار ، فليست هناك علاقة بين سعة الرزق وحبة الله ، ولا بين ضيق الرزق وسخط الله ، بل الله يبتلي عباده بما يشاء ، يبتلى هذا بالسعة لينظر أيشكر أم يكفر ، ويبتلى هذا بالضيق لينظر أيصبر أم يكفر ، ولا سعيد من إذا وسع عليه شكر ، وإذا قدر عليه رزقه صبر .

ثم قال تعالى : – (بَل لّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) وهذه أفعال المكذبين بيوم الدين الكافرين برب العالمين كما قال تعالى : – (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) . وقوله تعالى : – (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَّمًّا) المراد بالتراث : – الميراث ، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ، ولا الصبيان حتى جاء الإسلام فقال الله تعالى : – (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا) وقال سبحانه : – (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللاتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ) يعني : – الذين لا تؤتونهم ما كتب لهم فأعطى المرأة حقها ، والصغير حقه ، وإن الإنسان ليحزن حين يرى المسلمين يفعلون فعل الجاهلية ، (وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَّمًّا) ولا يأتون كل ذي حق حقه .

وقوله سبحانه : – (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) أي : – كثير ، وهذه فطرة فطر الإنسان عليها ، ولا يذم عليها إلا إذا حمله هذا الحب ، على أن يحرص على المال حرصاً شديداً فيكسبه من حرام ، ثم لا يؤدي حق الله تبارك وتعالى فيه .

ثم ذكر الله تبارك وتعالى بعض أهوال يوم القيامة وحال الناس يومئذ ، فقال : – (كَلاَّ) أي : – حقاً (إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا) وذلك يوم القيامة ، كما قال : – (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ) ، (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) وذلك بعد شفاعة سيد الأنبياء عليهم السلام ، ليجيء الرب لفصل القضاء بين العباد ، وقد طال عليهم المقام ، في أرض الموقف ، الشمس فوق رؤوسهم دانية ، وجهنم بهم محيطه ، وزحام شديد ، فاشتد الحر وكثر العرق حتى ذهب في الأرض سبعين ذراع ، يجيء الرب سبحانه وتعالى يوم القيامة كيف يشاء ، من غير تمثيل ولا تكييف ولا تحريف ولا تعطيل (وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا) أي : – قائمين صفوفاً صفوف ، كما قال سبحانه : – (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلا) ، وقال : – (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفًّا) .

(وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ) قال عليه الصلاة والسلام : – " يؤتى بجهنم يومئذ ، لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها " .

(يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ) أي : – يفيق من غفلته ، وينتبه من رقدته ، ويعلم أنه قصر في نفسه ، وفرط في جنب ربه ، (وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى) أي : – كيف تنفعه الذكرى الآن ، وقد أفضى إلى ما قدم ، (يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي) فقد علم أن الحياة الحقيقية هي التي بدأت وليست التي انقضت كما قال تعالى : – (وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) .

(فَيَوْمَئِذٍ لّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ) (إن بطش ربك لشديد) وإن أخذه لأليم ، وفي وسط هذا الهول المروع ، وهذا العذاب والوفاق الذي يتجاوز كل تصوير .

تنادى النفس المؤمنة من الملأ الأعلى (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي) ارجعي إلى ربك أي صاحبك ، وهو الذي كانت تعمره في الدنيا ، حالة كونك راضية عما أعد لك في الجنة ، مرضية ، قد رضي الله عنك ، كما فكرها في القرآن الكريم بقول رب العالمين عن أوليائه المؤمنين (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) فادخلي في عبادي أي : – ليحيوا بعد مماقم ، وادخلي جنتي التي بها وعدتي .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يمتعنا بسماع هذا النداء الحلو العذب المطمئنة يوم القيامة .

وأما سورة البلد

فهي سورة مكية .

استفتحت : – بالقسم على حقيقة في حياة الإنسان ثابتة ، (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ) ثم ذكرت دلائل قدرة الله على هذا الإنسان الذي يحسب أن لن يقدر عليه أحد وكشفت له عن صعوبة الطريق ، وعن العقبات التي تعترضه في سيرة إلى ربه ، وحثته على الاجتهاد على اقتحام هذه العقبات ، وبينك له الأمور التي يستعين بها على ذلك .

ثم ختمت : – بالوعيد للذين وقفوا أمام هذه العقبات عاجزين عن اقتحامها لتسلط النفس والهوى والشيطان عليهم ، (أولئك أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ) .

قوله تعالى : – (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ) المراد به : – البلد الحرام مكة ، (وَأَنتَ حِلٌّ) أي : – حلال أو مقيم (بِهَذَا الْبَلَدِ) .

(وَوَالِدٍ وَمَاوَلَد) وهو ظاهر يشمل كل والد وكل ولد ، وجواب القسم (لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَد) أي : – في تعب ومشقة ، وجهد وكد ، وكفاح وكد ، ودك كما سبق في الانشقاق (يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيه) .

(أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ) يعني : – أيظن ألا يسأل ويحاسب على جميع أعماله ، فهو (يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالا لُّبَدًا) أي : – كثير .

(أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ) أيظن أن الله لم يره ، (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ) يبصر بهما ، (وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ) ينطق اللسان وتساعده الشفتان ، (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) أي : – بينا له الطريقين طريق الخير وطريق الشر ، حتى صار كل طريق ظاهراً وواضحاً وضوح النجد ، وهو الأرض المرتفعة .

(فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) معنا فلا اقتحم العقبة ، فهو حض من الله للإنسان على اقتحام العقبة : – وهي في الأصل الطريق في الجبل ، سميت كذلك : – لصعوبة سلوكها ، والمراد بها هنا : – كل ما يمنع الإنسان من سلوك طريق الخير ، من النفس والهوى والشيطان وثقل التكليف والاقتحام معروف وهو الدخول في الشيء بقوة ، وقوله تعالى : – (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ) سؤال لتفخيم شأنها وتعظيم أمرها .

ثم أرشد إلى كيفية اقتحامها فقال : – (فَكُّ رَقَبَةٍ) والمراد بفكها : – عتقها ، (أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ) وخص ربنا سبحانه الإطعام باليتيم ذي المقربة ، لأن الصدقة على المسكين صدقة ، وعلى ذي الرحم ثنتان صدقة وصلة ، أو مسكينا ذا متربة ، وهو البائس المعدوم الذي لا يجد شيئا ، حتى إنه ليفترش التراب من الحاجة .

(ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا) فالإيمان : – هو أساس قبول الأعمال إذا توفرت شروط القبول الأخرى ، وإلا فالكافر لا يقبل منه عمل أبداً كما قال تعالى : – (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى وَلا يُنْفِقُونَ إِلا وَهُمْ كَارِهُونَ) .

(وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ) .

نعوذ بالله من الخذلان ونسأله الهداية والتوفيق .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبة أجمعين .

التفسير الإجمالي

المحاضرة السادسة عشرة

تفسير سور الشمس والليل والضحى والشرح

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير سور : – الشمس ، والليل ، والضحى ، والشرح .

سورة الشمس ، والليل ، والضحى ، والشرح .

أما سورة الشمس

فهي سورة مكية ، انقسمت قسمين : –

الأول : – يتضمن حقيقة النفس الإنسانية ، واستعداداتها الفطرية ، ودور الإنسان في شأن نفسه وتبعيته في تقرير مصيرها .

والثاني : – يتضمن قصة ثمود و وتكذيبها بإنزال رسولها ، وعقرها للناقة ، ومصرعها بعد ذلك وزوالها ، وهي نموذج من الخيبة التي تصيب من لا يزكي نفسه ، فيدعها للفجور ، ولا يلزمها تقواها .

يقول الله تعالى : – (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)

يقسم ربنا سبحانه وتعالى ، بهذه الخلائق والمشاهد الكونية ، كما يقسم بالنفس وتسويتها وإلهامها ، ومن شأن هذا القسم : – أن يخلع على هذه الخلائق قيمة كبرى ، وأن يوجه إليها القلوب يتأملاها ، ويتدبر ماذا لها من قيمة ، وماذا بها من دلاله حتى استحقت أن يقسم به الجليل العظيم سبحانه ، وهذا القسم (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) ظاهر المعنى ، و أما قوله تعالى : – (وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا) أي : – سواها و بسطها ، (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) أي : – خلقها سوية مستقيمة ، على الفطرة القويمة ، كما قال تعالى : – (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) الروم الآية ٣٠ ،

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : – " كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه ، يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه " . كما تولد البهية ، بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء .

وقوله تعالى : – (فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) أي : – فأرشدها إلى فجورها وتقواها ، أي : – بين ذلك لها ، وهداه إلى ما قدر لها كما قال تعالى : – (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) ، وقال سبحانه : – (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ) ، وهذه الآيات كلها تفيد أن الإنسان : –

١) هو إرادة مزدوجة ، وقدرة كذلك .

٢) وهو يريد الخير كما يريد الشر .

٣) وله من القدرة ما ينفذ به ما أراده من الخير أو الشر .

٤) وهو مكلف بفعل الخير واجتناب الشر ، فإن فعل ، فقد أفلح و أنجح ، وإن لم يفعل فقد خاب وخسر .

قال تعالى : – (قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) أي : – قد أفلح من طهر نفسه من دنس الكفر والخطايا ، وقد خاب من أخفى دوافع الخير في نفسه حتى أماتها ، وأظهر دوافع الشر حتى قواها ثم تبعها ، وتزكية النفس لا تكون إلا بالإيمان والعمل الصالح ، وما شرعت العبادات إلا لتزكية النفس ، قال الله تعالى عن الصلاة : – (إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ) وقال عن الزكاة : – (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم عن الصوم : – " الصيام جنة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم ، فلا يرفث يومئذ ، ولا يصخب ، فإن سابه أحد أو قاتله ، فليقل إني امرؤ صائم " .
وقال الله تعالى عن الحج : – (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : – " من حج فلم يرفث ، ولم يفسق ، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه " . وهكذا تجتمع العبادات كلها ، على تحقيق تزكية النفس ، التي لا فلاح للإنسان إلا بها .

ثم بعد ذلك يعرض الله سبحانه وتعالى : – نموذجاً من نماذج الخيبة ، التي ينتهي إليها من يدسي نفسه ، فيحجبها عن الهدى ، ويدنسها ، ممثلاً هذا النموذج ، فيما أصاب ثموداً من غضب ، ومكان هلاك ، فيقول سبحانه وتعالى : – (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا) لقد أرسل الله إلى ثمود أخاهم صالح ، فقال : – (يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره) ، فكذبوا رسولهم ، وعصوا أمر ربهم ، كما قال الله تعالى : – (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى) وكان ذلك ، بسبب ما كانوا عليه من الطغيان ، والبغي ، ولذا قال هنا : – (كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا) ولقد كانوا طلبوا من صالح آية ، ناقة عشراء تخرج من هذه الصخرة ، لصخرة عينوها ، وأعطوه عهودهم ومواثيقهم لئن جاءهم بها ليؤمنن به ، فدعا صالح ربه ، فأخرج الله لهم الناقة ، فقال لهم صالح : – قد جاءتكم بينة من ربكم ، هذه ناقة الله لكم آية ، فزروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء ، فيأخذكم عذاب أليم ، ولكن القوم نقدوا عهودهم ، ومواثيقهم ، وهموا بعقر الناقة ، فانبعث بذلك أشقاهم . فتعاطي فعقر ، قال تعالى : – (إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا) ونسب العقر إليهم ، مع إن العاقر واحد ، لأنهم قد رضوا بذلك ، وقد جرت حكمة الله تعالى ، وحكمة أن الراضي بالمنكر ، شريك لفاعلة ، كما قال تعالى : – (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ) النساء الآية ١٤٠ ، ولذا عم العذاب قوم ثمود ، (فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَ) يعني : – ما خاف الله من أحد حين سوى الأرض بقوم ثمود الذي يخافهم الجبار ، والذي لا يخاف عاقبة بطشه ، يكون بطشه شديدا ، وأخذه أليم ، وهكذا الله سبحانه وتعالى كما قال : – (إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ) ، وقال : – (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) الروم الآية ١٠٢ ، إن أخذه أليم شديد .
نسأل الله تعالى العفو والعافية .

أما سورة الليل

فهي سورة مكية .

استفتحت : – بالقسم من الله تعالى ، على اختلاف سعي الناس في هذه الحياة ، ثم أنذر الله تعالى عباده ناره الحامية ، وبين لهم كيف يتقونه ، يقول الله تعالى : – (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) يقسم الله تعالى بالليل إذا يغشى الكون بظلامه عند مجيئه ، وبالنهار إذا تجلى بضيائه وإشراقه ، فأزاح عتمة الليل ، وقوله تعالى : – (وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى) أي : – أقسم بالله العظيم الذي خلق بقدرته الذكر ، والأنثى من ماء واحد ، وجواب القسم (إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى) يعني : – إن سعيكم لمختلف ، مختلف في حقيقته ، مختلف في بواعثه ، مختلف في نتائجه ، فمنكم المؤمن والكافر ، والبار والفاجر ، والمطيع والعاصي

، والجواد والبخيل ، ومنكم من يسعى في فكاك نفسه وعتقها ، ومنكم من يسعى في عطبها ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : – " كل الناس يغدوا فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها " ، وقول الله تعالى : – (فَأَمَّا مَن أَعْطَى) أي : – أعطى حق السائل والمحروم ، واتقى البخل والشح ، وصدق بالحسنى ، وهي الجنة في الآخرة ، وأن الله يخلف عليه في الجنة خيراً مما أنفق وأعطي ، كما قال عز وجل : – (وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) .

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) حتى يصير فعل الخير عليه يسير لا يجد مشقة في فعله ، ولا يجد حرجاً منه ، فيكون دائما مسارعاً إلى طاعة الله ، وأما من بخل بماله ، فلم يعطي حق الفقراء ، والمساكين ، واستغنى عن ربه ، لظنه أن الغنى يكفيه ، كما قال تعالى : – (إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) العلق الآية ٦ – ٧ .

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى) فلم يثق بوعد الله أن ينفق عليه إذا أنفق . (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) فتكون طاعته عليه عسيرة ، وفعل الخير عليه شاق ، بينما المعصية عليه بخلاف ذلك ، فهو دائما سريعاً إلى معصية الله ، بطيئا عن طاعته .

وقوله تعالى : – (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى) يعني : – أن هذا الذي بخل واستغنى ، إذا تردى في جهنم يوم القيامة ، لن يغني عنه ماله الذي حرص عليه ، وعدده من العذاب شيئا ، كما قال تعالى : – (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ) .

وقوله سبحانه : – (إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى) أي : – علينا أن نبين للناس الحلال والحرام ، وطريق الخير وطريق الشر ، ليهلك من هلك عن بينه ، ويحيا من حيي عن بينه ، وقد فعل سبحانه ، فأرسل رسله مبشرين ومنذرين ، وأنزل كتبه فيها الهدى والنور ، فتحققت الهداية ، كما قال تعالى : – (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

وقوله تعالى : – (وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالأُولَى) يعني : – أنه سبحانه له الأمر في الأولى والآخرة ، وهو الذي بيديه ملكوت كل شيء يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويوفق من يشاء ، ويخذل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، فمن أراد الدنيا فليطلبها من الله ، ومن أراد الآخرة فليطلبها من الله ، لأن له سبحانه ، الآخرة والأولى .

وقوله تعالى : – (فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى) أي : – تتوهج ، والإنذار : – هو الإعلام مع التخويف ، فكل إنذار إعلام ، وليس كل إعلام إنذار ، وإنما أنذر الله العباد ليعملوا على وقاية أنفسهم من هذه النار الحامية ، التي فضلت على نار الدنيا بتسعة وستين جزءاً ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : – " والتي أهون أهلها عذاباً أبو طالب ، وهو منتعل نعلين يغلي منهما دماغه " ، كما أخبر صلى الله عليه وسلم ، وقد أمر الله تعالى المؤمنين صراحة أن يقوا أنفسهم هذه النار ، فقال عز وجل : – (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) التحريم الآية ٦ .

وقوله تعالى : – (لا يَصْلاهَا إِلاَّ الأَشْقَى) أي : – لا يدخلها دخولاً ، بحيث تحيط به من كل جانب ، إلا الأشقى ، كما قال تعالى : – (لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ) ، وقال لهم : – من فوقهم ظلل من النار ، ومن تحتهم ظلل ، ثم فسر الأشقى الذي يدخلها فقال : – (الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى) أي : – كذب بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وبالحق الذي جاء به ، وتولى عن النبي صلى الله عليه وسلم وأعرض عنه .

وقوله تعالى : – (وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى) أي : – سيزحزح عن النار ، وينجو منها ومن حرها الأتقى ، وذلك أن الناس كلهم ، يردون النار يوم القيامة ، كما قال الله تعالى : – (وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) مريم الآية ٧١ – ٧٢ .

(وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى) أي : – ينفق في سبيل الله ، يزكي نفسه بالنفقة ، كما سبق بيانه في صورة الشمس ، وقوله تعالى : – (وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى) يعني : – أنه لا ينفق مكافأة ولا جزاء ، فإن الناس في الإنفاق منهم من ينفق ينتظر مكافأة بأحسن مما أنفق ، أو بمثله ، ومنهم من ينفق مكافأة وجزاء لمن أنفق عليهم ، ومنهم من ينفق رياء وسمعة ، ومنهم الأتقى ، الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ، وذلك الأتقى ، هو الذي يجنب النار يوم القيامة ،

ويزحزح عنها ، وليسوف يرضى في الدنيا عن ربه وعن دينه وعن سعيه ، ولسوف يرضى في اليسر والعسر ، والمنشط ، والمكـــره ، والشدة والرخاء ، والعافية والبلاء ، وسوف يكون دائما راضيا ، آمناً مطمئن لا يقلق ولا يترعج ، ولا يستعجل النتائج ، لأنه قـــد رضي بربه ، ورضي عنه ، ولسوف يرضى في الآخرة ، حين يلقى الله عز وجل ، نسأل الله سبحانه وتعالى ، أن يجعلنا من الذين رضي عنهم ، ورضوا عنه .

أما سورة الضحى

فهي سورة مكية ، روى البخاري عن جندب ابن سفيان رضي الله عنه قال : – اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يقـــم ليلتين أو ثلاثة ، فجاءت امرأة فقالت : – يا محمد ، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين ، أو ثلاثـــة ، فأنزل الله عز وجل : – (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) ، والضحى معروف .
(وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) أي : – سكن وأظلم ، كقوله تعالى : – (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى) وجواب القسم (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) أي : – ما هجرك بعد أن وصلك ، ولا أبغضك بعد أن أحبك .
(وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى) على كثرة ما أوتيت في الدنيا من فضل ، فالآخرة خير لك من الأولى .
(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) والأولى إبقاء هذا الوعد على عمومه ، إلا أن من المبشرات ، أنه يدخل في هذا الوعد ، مـــا رواه مسلم في الصحيح ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قام ذات ليلة يصلى ، فقرأ المائدة ، حتى أتى على قول الله تعالى : – (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) فأخذ يردد الآية ويبكي ، فقال الله تعالى : – يا جبريل ، آت محمد فأسأله ما يبكيك ، وربك أعلم ، فآتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم ، فسأله ، فقال يا جبريل أمتي ، يا جبريل أمتي ، فعرج جبريل فذكر ما قاله محمد ، وربك أعلم ، فقال الله تعالى : – يا جبريل ، آت محمد فقل له : – لا تبكي فإنا سنرضيك في أمتك .
ثم أخذ الله تعالى يعدد على محمد صلى الله عليه وسلم ، نعمه ، فقال : – (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) ومعلوم سيرته صـــلى الله عليـــه وسلم ، أنه أباه توفي وهو جنين في بطن أمه ، ثم توفيت أمه وهو ابن ست سنين ، فكفله جده عبد المطلب ، ثم توفي عبد المطلب ، وهو ابن ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب ، وألقى الله تعالى محبة محمد في قلب أبو طالب ، فكان أقرب إليه من أبنائه ، فأواه وأحسن إليه ، ولم يزل يحوطه برعايته وعنايته ، حتى بعث ، فنصره ودافع عنه ، وكف أذى قومه عنه مع أنه كان على دين قومه ، ولم يؤمن بنبوة ابن أخيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما كان ذلك كله بقدر الله ، وحسن تدبيره ، لنبيه صلى الله عليه وسلم .
(وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) أي : – وجدك غافلاً عن هذا الدين ، وهذا الوحي ، وهذه الشريعة ، فاختارك لها ، ومن عليك بهـــا دون سائر قومك ، وهذه الآية كقوله تعالى : – (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) ، وكقوله سبحانه : – (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ) .
وقوله تعالى : – (وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى) أي : – وجدك فقير ذا عيال ، فأغناك أولاً بغنى النفس ، وهو الأصل ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس ، فأغنى الله نبيه غنى النفس ، ورزقه القناعة ، وهي كما يقولون كتر لا يفنى ، كما أغناه بكسبه وتجارته في مال خديجة ، رضي الله عنها ، ثم تزوجها فكان مالها له ، فإذا علمت فضل الله عليك يا نبينا (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ) لقد كنت يتيما فآواك الله فأحسن إلى اليتيم وأكرمه ، لا تقهره ولا تظلمه ، ولا تدفعه ولا تطـــرده ، ولقـــد أحسن صلى الله عليه وسلم إلى اليتامى ، وأمر بالإحسان إليهم ، ونهى عن أذيتهم وظلمهم ، وكان يقول : – اللهم إني أحرج حـــق الضعيفين : –اليتيم ، والمرأة .

وقوله تعالى : - (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ) فمن سألك شيئا من مالك ، أو من جاهك فلا تنهره على سؤاله ، ولكن إما أن تعطيه ، وإما أن ترده بما ميسور من القول ، كما قال تعالى : - (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلا مَيْسُورًا) الإسراء الآية ٢٨ ، كما أن رد السائل يشمل أيضا طالب العلم إذا سأل عن مسألة ، فعلى العالم ألا ينهره بل يجب أن يكون به رفيقاً وعليه حليم ، وعليه أن يصبر على قلة فهمه ، ويعيد عليه القول حتى يفهمه .

وقوله تعالى : - (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) لأن التحدث بالنعمة شكر ، والشكر من موجبات الزيادة ، كما قال تعالى : - (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) إبراهيم الآية ٧ .

ربي أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي ، وعلى والدي ، وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ، اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك .

(فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) .

أما سورة الشرح

فهي سورة مكية ، شديدة الاتصال بسورة الضحى ، ولذا كان بعض السلف يعتبرهما سورة واحدة ، فلا يفصل بينهما بالبسملة ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى ، عدد على رسوله صلى الله عليه وسلم نعمه ، التي ابتدئها في سورة الضحى ، (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى) (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) .

وقوله تعالى : - (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) سؤال للتقرير ، ومعناه : - قد شرحنا لك صدرك ، ومن شرح الله صدره ، يسر له الخير ، وأعانه على البر ، ورزقه حسن الخلق ، سعة الصدر ، فهو دائما يسع الناس بحلمه ، ويسعهم بحسن خلقه ، وهو دائما هين لين ، رفيق رحيم ، ومن كن كذلك ، وفق في دعوته ، وأقبل الناس عليه ، كما قال الناس تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : - (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) .

ولذلك لما كلف الله تعالى موسى عليه السلام أن يأتي فرعون ، قال موسى عليه السلام : - (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي) أي : - وسع لي صدري حتى أتحمل الأذى القولي والفعلي ، ولا أضيق صدراً بما أسمع من أذى ، ولا بما ينالني من أذى ، فإن واسع الصدر لا يحزن ، ولا يغتم لكلمة يسمعها ، أو أذيته تصيبه ، وإنما يتلقى الأذى على الرحب والسعة ، ويصبر على ذلك ابتغاء وجه ربه الأعلى .

وقوله تعالى : - (وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ) من المعلوم أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من كبائر الذنوب قبل النبوة وبعدها ، فلم يبقى إلا الصغائر ، التي ربما تكون عن اجتهاد فهي مغفورة ، إلا أن شرف الأنبياء ، وعلو شأنهم يجعل النبي إذا كانت منه الصغيرة ولو عن اجتهاد ، يراها شيئاً عظيم ، ويحمل همها ، وهذا الإحساس ربما وجده بعض الصالحين من المؤمنين ، فالأنبياء أولى بذلك ، فتفضل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم ، وغفر له ما كان من نحو ذلك ، فوضع عنه بذلك وزره ، الذي أنقض ظهره ، والنقيض هو الصوت الذي يسمع من المحمل فوق ظهر البعير من شدة الحمل ، وهذه الآية كقوله تعالى : - (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ) .

وقوله سبحانه : - (وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ) فلا يذكر الله إلا وذكرت معه ، في الأذان ، والإقامة ، والصلاة ، والخطبة ، ونحو ذلك ، حتى لو أن رجلاً آمن بالله ، وكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لم ينفعه إيمانه بالله .

وقوله تعالى : - (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) يعني : - مع الكرب فرج ، ومع الشدة رخاء ، فليصبر الإنسان فإن مع العسر يسرا (إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) .

قال العلماء : – عرف العسر ونكر اليسر ،فتوحد العسر ، وتعدد اليسر ، ولذا جاء عن بعض السلف : – لن يغلب عسر ، يسرين .
وقوله تعالى : – (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ) .
قال بعض العلماء : – إذا فرغت من أشغال الدنيا ، فانصب في عبادة ربك .

وأرجع الأقوال : – إذا فرغت من عمل ، فانصب في عمل آخر ، إذا فرغت من عمل الدنيا ، فانصب في عمل الآخرة ، وإذا فرغت من عمل الآخرة فانصب في عمل الدنيا ، و إياك والكسل ، و إياك والخمول ، و إياك واللهو ، و إياك واللعب .

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنه مر برجلين يتصارعان فقال : – ما بهذا أمرنا بعد فراغنا ، وكان عمر رضي الله عنه يقول : – " إني لأكره لأحدكم أن يكون سبهللاَ ، لا في عمل الدنيا ، ولا في عمل الآخرة " .

وقال بعض العلماء : – هذه الآية حلت مشكلة الفراغ عند المسلمين ، ولذلك لم يشتكي الصدر الأول مما يشتكي منه الناس اليوم ، يدلك على ذلك قول عروة بن الزبير ، وهو حدث صغير السن ، لعائشة رضي الله عنها ، وكانت خالته : – إن الله يقول : – (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ) إذا فلا جناح على الرجل أن يدع الطواف بين الصفا والمروة ، فقالت عائشة : – لا يا ابن أختي ، ليست هكذا ، ولو كانت كما فهمت لقال الله : – (فليس عليه جناح ألا يطوف بهما) والشاهد : – أن هذا الصبي اليافع ، هكذا كان يقرأ القرآن ويتدبر معانيه ، وهكذا كان حريصا على التثبت من صحة فهمه ومن كان كذلك ، كيف لن يكون عنده فراغ أبد ، فالسعيد الموفق من حافظ على وقته ، فإنه رأس ماله في تجارته مع الله سبحانه وتعالى ، وإنما لجريمة كبرى هذه المقولة وهي : – (تعال نضيع الوقت) ولسوف يعلم هؤلاء قيمة الوقت ، إذا جاء أحدهم الموت ، ولسوف يطلب قليلا من الوقت يتدارك فيه ما فات ، وهيهات هيهات ، قال تعالى : – (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) فإذا فرغت من عمل فانصب في عمل آخر ، ولا تكن سبهللاَ ، لا في عمل الدنيا ولا في عمل الآخرة .
(وإذا ربك فارغب) اجعل نيتك لله ، ورغبتك إلى الله عز وجل ، اجعل كل عملك لله سبحانه وتعالى ، وليكن شعارك ما أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم : – (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) .

نسأل الله تبارك وتعالى أن يبارك لنا في أوقاتنا وأعمالنا ، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .

هذا والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الإجمالي

المحاضرة السابعة عشرة

تفسير سور التين والعلق والقدر والبينة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آلـه وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير هذه السور : – التين ، والعلق ، والقدر ، والبينة .

سورة التين ، والعلق ، والقدر ، والبينة .

أما سورة التين

(وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) .

أما سورة التين ، فقد استفتحها : – الله تبارك وتعالى بقوله : – (وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ) يقسم ربنا سبحانه وتعالى بالتين والزيتون ، وهما معروفان ، وإنما خصهما بالذكر تشريفاً لهما وتكريم ، وقوله تعالى : – (وَطُورِ سِينِينَ) هو : – الجبـل الذي كلم الله تعالى عليه موسى عليه السلام بسيناء ، بالواد المقدس طوى ، وهذا البلد الأمين يعني : – مكة .

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) هذا هو جواب القسم ، وهو أن الله خلق الإنسان في أحسن صورة ، كما قال تعالى : – (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) ، وقال تعالى : – (يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَـرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) وهذه نعمة تستحق الشكر ، فمن آمن قد شكر ، ومن كفر فقد كفـر ، وسيرد إلى أسفل سافلين ، كما قال تعالى : – (ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ) أي : – إلى النار ، والنار درجات بعضها أسفل من بعض ، وأسفلها أشدها عذاب ، قال الله تعالى : – (إن الله جامع المنافين والكافرين في جهنم جميعا) وقال : – (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِـي الـدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا) ومن رد إلى النار قبح منظره ، وساءت صورته ، قال الله تعالى : – (ومن خفت موازينـه) فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوهم النار وهم فيها كالحون أي عابسون ، قد بدت أسـنانهم ، وتقلسـت شفاههم ، كالرأس المشوي على النار ، وقال الله سبحانه وتعالى : – (وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ) وقال الله تعالى : – (وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُـوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا) وقال تعالى : – (وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا) وأقبح صورة أن تكون الوجوه سوداً ، والعيون زرقا ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : – " إن غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً ، وإن ضرسه مثل أحد ، وإن مجلسه من جهنم ، ما بـين مكة والمدينة " ، فما أقبح هذه الصورة ، وما كان أحسن صورة هذا الإنسان في الدنيا ، نسأل الله السلامة والعافية .

ثم استثنى ربنا سبحانه من ذلك المصير ، من آمن وعمل صالحاً فقال : – (إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) إلا الـذين آمنـوا بقلوبهم ، وعملوا الصالحات بجوارحهم ، فإنهم في جنات النعيم ، على صورة أجمل من الصورة التي كانوا عليها في الدنيا ، كما قـال النبي صلى الله عليه وسلم : – " إن أول زمرة يدخلون الجنة ، على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم كأشد كوكب دري في

السماء إضاءة ، ثم يزاد في جمالهم كل أسبوع " ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال ، فتحثوا في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمال ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم ، والله لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالاً ، فيقولون : – وأنتم والله قد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً .

وقوله تعالى : – (فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ) أي : – أجر دائم ، غير منقطع ، كما قال تعالى : – (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ) وكما قال حكاية عن أهل الجنة وقد وصف نعيمهم : – (إن هذا لرزقنا ما له من نفاد) .

وقوله تعالى : – (فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ) يعني : – ومن هذا الذي يكذبهم يا نبينا ، وقد جئتهم بالبينات والهدى ، ومن هذا الذي يكذب بالحساب والجزاء ، (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) ، بلى ، ومن حكمته أن يبعث الناس بعد الموت ، ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى ، ولو لم يكن بعث كما ظن المكذبون ، لأسوى الظالم والمظلوم ، والبر والفاجر ، والمؤمن والكافر ، والله تعالى قد نفى التسوية بينهم جميعا ، فقال عز وجل : – (أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوُونَ) ، وقال سبحانه : – (أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ) فلا بد من البعث للفصل بين العباد ، ومجازة كل عامل بعمله ، لأن عدم البعث يتنافى مع حكمة الله عز وجل ، (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) ، سبحانه بلى .

أما سورة العلق

فهي سورة مكية ، وصدرها أول ما نزل من القرآن ، وهو يحكي كيف بدأ الوحي ، وما بعد ذلك من الآيات فإنه يذكر حقيقة من حقائق الإنسان ، وهي أنه إذا استغنى طغى ، إلا من رحم الله ، ثم تذكر الآيات ، قصة الشقي أبي جهل ، ونهيه النبي صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ، وتوعد الله تعالى إياه (كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَه سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ) .

روى البخاري بسنده عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، أنها قالت : – أول ما بدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من الوحي ، الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤية إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلوا بغار حراء فيتحنث فيه ، والتحنث : – هو التعبد ، فيتحنث فيه الليالي ذوات لعدد قبل أن يترع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء ، فجاءه الملك ، فقال له : – اقرأ ، قال : – ما أنا بقارئ ، قال : – فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، فقد أرسلني ، فقال لي : – اقرأ ، فقلت : – ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : – (اقرأ بسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم) ، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، فقال : – زملوني زملوني ، فزموله حتى ذهب عنه الروع وقال لخديجة : – وأخبرها الخبر لقد خشيت على نفسي ، فقالت خديجة : – كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة ابن نوفل ابن أسد ابن عبد العزى ، ابن عم خديجة ، وكان امرؤ تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له خديجة : – يا ابن عم ، اسمع من ابن أخيك ، فقال له : – يا ابن أخي ماذا ترى ؟ ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خبر ما رأي ، فقال له ورقة : – هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جدعاً ، ليتني أكون حيا إذ يخرجك

قومك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : – أو مخرجي هم !!! قال : – نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت فيه إلا عـودي ، وإن يدركني يومك أنصرك ، نصرك مؤزراً ، ثم لم يلبث ورقة أن توفي ، وفطر الوحي .

قوله تعالى : – (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ) يعني : – لتكن قراءتك باسم ربك ، بسم الله ، لا بسم غيره ، بسم الله وحده الذي خلق ، والخلق يقتضي الربوبية ، فالله سبحان وتعالى هو رب العالمين ، لأنه هو الذي خلقهم ، (خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ) والمقصود : – بـني آدم لا الإنسان الأول الذي هو آدم نفسه .

وأما قوله تعالى : – (خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ) فالمراد به : – الإنسان الأول أدم عليه السلام ، وقد جمع الله بين الاثنين ، وبين أصل كل منهما في قوله : – (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) والعلق : – دود أسود في الماء معروف ، كما في لسان العرب ، والمراد به في الآية : – الحيوانات المنوية .

وقوله تعالى : – (اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ) فليس بعد كرم الله كرم ، وما النعم التي يتقلب فيها العباد ، إلا من فيض كرمه سبحانه ، ومن كرمه هذا الوحي الذي أوحاه إلى نبيه ، رحمة للعالمين ، وقد عرف السلف قدر هذه النعمة ، وبكوا حين فقدوها .

فعن أنس رضي الله عنه قال : – قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما : – بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورها ، فلما أتيا إليها بكت ، فقالا لها : – ما يبكيك ؟ ، أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : – بلى ، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسوله الله صلى الله عليه وسلم ، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء ، فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها .

وقوله تعالى : – (الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) إن الإنسان قد خرج من بطن أمه لا علم عنده ، ووهبـه الله تعـالى الحواس ، التي هي وسائل التعلم ، كما قال تعالى : – (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَـلَ لَكُـمُ السَّـمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) وفي نزول هذه الآيات أول ما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم دليل على أن الإسلام ديـن يقوم على العلم ، وينبذ الجهل ويعيبه ، كما ينبذ التقليد ويذمه ، ذلك أن العلم : – هو السبيل الوحيد إلى الإيمان ، فعلى المسلمين أن يهتموا بالعلم ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال : – " من الله به خيراً يفقهه بالدين " .

وقوله تعالى : – (كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) . روى مسلم فيه صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : – قال أبو جهل هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ، فقيل : – نعم ، فقال : – واللات والعزى لأن رأيته يفعل ذلك لأطئن علـى رقبتـه ، أو لأعكرن وجهه في التراب ، فأتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، زعم ليطأ على رقبته ، فما فجئهم منهم إلا وهـو ينقص على عقبيه ، ويتقي بيده ، فقيل له : – مالك ، فقال : – إني بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : – لو دنى مني لأختطفه الملائكة عضوا عضواً " ، فأنزل الله عز وجل : – (كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى) إلى آخر الآيات ، وهذا كما يقول العلماء ، من العام المخصوص ، لأنا رأينا أغنياء ، لا يظلمون ، رأينا أغنياء صالحين ، في أموالهم حق للسائل والمحروم ، ينفقون أموالهم بالليل والنهار ، سراً وعلانية ، ويطعمون الطعام على حبه ، مسكيناً ، ويتيماً وأسير ، إنما نطعمكم لوجه الله ، لا نريد منكم جزاء ولا شكور ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا ، يدل على تخصيص الآيات قوله تعـالى : – (إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلا الْمُصَلِّينَ) . وقوله تعالى : – (إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَـى) تنبيـه لذلك الغافل ، وتذكير لذلك الضال ، إنا إلى ربك الرجعي ، فإلى أين أنت ذاهب ، وأنا إلى ربك المنتهى ، فلماذا هذا الظلم ، ولماذا هذا الطغيان ، فأفق من غفلتك ، وانتبه من رقدتك ، وابتغي فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنسى نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليه ، ولا تبغي الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب بالمفسدين ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت ، فيقول : – ربي لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق ، وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفسا ًإذا جاء أجلها ، والله خبير بما تعملون .

وقوله سبحانه : – (أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى) .

قال ابن كثير رحمه الله : – نزلت في أبي جل لعنه الله ، توعد النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عند البيت ، فوعده الله تعالى بالتي هي أحسن أولاً فقال : – (أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى) أي : – فما ظنك إن كان الذي تنهاه على الطريق المستقيم في فعله ، أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى بقوله ، وأن تتوعده على صلاته ، ولهذا قال : – (ألم يعلم بأن الله يرى) أي : – أما علم الناهي لهذا المهتدي ، أن الله يراه ويسمع كلامه ، وسيجازيه على فعله ، أتم الجزاء ، ثم قال تعالى متوعداً ومهدد : – (كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَه) أي : – لا إلم يرجع على ما فيه من العناد ، والشقاق (لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَة) أي : – سواداً يوم القيامة ، ثم قال تعالى : – (نَاصِيَةٍ كَاذِبَة خَاطِئَة) يعني : – ناصية أبي جهل كاذبة في مقالها ، خاطئة في فعالها (فَلْيَدْعُ نَادِيَه) أي : – قومه وعشيرته ، أي : – ليدعهم يستنصر بهم ، فسندعو نحن الزبانية ، وهم ملائكة العذاب ، حتى يعلم من يغلب ، أحزبنا أم حزبه .

ثم تختم السورة : – بتوجيه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الثبات على الطاعة ، (كَلاَّ لا تُطِعْهُ فيما ينهاك عنه ، وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ) ، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد .

أما سورة القدر

فهي سورة مكية ، تتحدث عن هذه الليلة ذات القدر ، التي خصت بتنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، فهي حقاً ليلة القدر ، وقد اشتملت على عظيم رحمة الله بعباده ، فتنزلت فيها الآيات الأولى من القرآن الذي هو رحمة للمؤمنين ، وجعلها الله لهم خيراً من ألف شهر ، فمن فعل فيها خير من ألف شهر ، ولا يحرم خيرها إلا محروم .
بسم الله الرحمن الرحيم (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) .
يخبر تعالى أنه أنزل القرآن الكريم في ليلة القدر ، وهي الليلة التي قال الله فيها : – (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَة) وليست ليلة النصف من شعبان كما زعم البعض ، وإنما هي في رمضان ، كما قال تعالى : – (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) وليست ليلة من ليالي العام كما ظن البعض ، ثم عظم الله شأن هذه الليلة فقال : – (وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ) وهي تقريباً بضع وثمانون عام ، فمن وفق لفعل الخير فيها ، كان له ثواب ألف شهر ، بل خير من ذلك ، وقوله تعالى : – (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ) أي : – يكثر تنزل الملائكة مع كبيرهم جبريل عليه السلام في هذه الليلة لبركتها ، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم : – " إن الملائكة تلك الليلة في الأرض أكثر من حصى الأرض " .
(سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ) . قال مجاهد : – هي سالمة ، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوء أو يعمل فيها أذى ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحث على قيام هذه الليلة فيقول : – من قام ليلة القدر إيماناً ، واحتساب غفر له ما تقدم من ذنبه ، ولا نستطيع الجزم بأن ليلة القدر هي ليلة كذا او كذا ، بل نقول كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، التمسوا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان في وتر ، فإني قد رأيتها فنسيتها ، ولحكمة نسيها صلى الله عليه وسلم ، حتى يجتهد المجتهدون ، ويتنافس المتنافسون ، لكنه صلى الله عليه وسلم ، وصفها بما يغلب على ظن الصالحين أنها هي ، فقال : – " ليلة القدر ليلة بلجه ، لا حارة ولا باردة ، ولا يرمى فيها بنجم ، ومن علامة يومها تطلع الشمس لا شعاع لها " .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا ليلة القدر وقيامها ، أعواماً ، وأعوام .

أما سورة البينة

فهي سورة مدنية ، تقرر أن الله سبحانه ، لم يكن ليترك الخلق سدى ، بل لابد أن يرسل إليهم رسل ، ثم هم بعد ذلك منهم المؤمن ، ومنهم الكافر ، ولكل جزاءه .

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَة) .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) .

يقول تعالى : – (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ) يعني : – لم يكن الكافرون من اليهود والنصارى وغيرهم من مشرك العرب ، متروكين هكذا كالإنسان المنفك المطلق ، غير المقيد ، يعني لم يكونوا متروكين لإرادهم ، ولذاهم ، وشهواهم ، حتى تأتيهم البينة ، أي : – حتى يبعث الله إليهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ، ويعلمهم ما عليهم ، ومالهم ، كما قال تعالى : – (أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى) أي : – يترك هكذا مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ، وكما قال تعالى : – (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ) يعني : – ألإن كنتم قوما مسرفين ، في الذنوب والمعاصي ، نتركم من غير أمر ولا نهي ، ولا نرسل إليكم رسولاً يبين لكم ما أنتم فيه من الضلال ، والحال : – أنه وما كنا معذبين حتى نبعث رسول ، فلا بد من إرسال الرسول بالبينة ، حتى تقام الحجة عليكم ، فمن كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون .

وقوله تعالى : – (رَسُولٌ مِّنَ اللَّه) بدل من البينة يتلوا صحفاً مطهرة من الدنس ، ومن الكذب ، ومن الشرك ، والكفر ، والنفاق ، كما قال تعالى : – (كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء ذَكَرَهُ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ) وقال تعالى : – (فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لَّا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) وقوله تعالى : – (فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ) الكتاب : – يطلق على الموضوع ، كما يقال : – كتاب الطهارة ، وكتاب الصلاة ، وكتاب القيامة ، وكتاب القدر ، وهذه الصحف المطهرة ، وهي هذا القرآن فيها كتب قيمة أي موضوعات وحقائق قيمة .

وقوله سبحانه : – (وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ) لقد كان أهل الكتاب متفقين ، على أن الله سبحانه يبعثن في آخر الزمان نبياً يختم به الأنبياء ، يؤمنون به ويقاتلون معه أعدائهم ، فينصرهم الله عليهم ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ، ولهذا نهانا الله سبحانه عما وقعوا فيه ، فقال : – (وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) .

وقوله سبحانه : – (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَة) يعني : – ما أمر أهل الكتاب في كتبهم وعلى ألسنة رسلهم إلا بإخلاص الدين لله ، وافراده بالعبادة دون سواه ، فعلى هذا اتفق المرسلون ، كما قال الله تعالى : – (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُون) ، ولكن الذين كفروا من أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، (وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء) ، أي : – مائلين عن الشرك إلى التوحيد ، وعن الأديان كلها إلى دين الإسلام ، (وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ) ، يعني : – أنهم أمروا بإخلاص العبادة كلها لله ،

وبإقام الصلاة التي هي أشرف العبادات ، وأعظم حق لله عز وجل ، (وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ) وهيا أعظم حق للعباد الفقراء على الأغنياء ، (وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) أي : – الملة العادلة ، كما قال تعالى : – (إِنِ الْحُكْمُ إِلا لِلَّهِ أَمَرَ أَلا تَعْبُدُوا إِلا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) ، وقال تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : – (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) فهي قاعدة الدين على الإطلاق ، عبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له ، والميل عن الشرك وأهله وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وذلك دين القيمة عقيدة خالصة في الضمير ، وعبادة لله ، تترجم عن هذه العقيدة ، وإنفاق للمال في سبيل الله : – وهو الزكاة ، فمن حقق هذه القواعد فقد حقق الإيمان كما أمر به أهل الكتاب ، وكما هو دين الله على الإطلاق .

ثم بين سبحانه وتعالى جزاء من كفر ، وجزاء من آمن ، فقال سبحانه : – (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا) (لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) أولئك هم شر البرية أي : – شر الخليقة التي خلقها الله وذرءها كما قال سبحانه : – (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون) أما الأبرار المتقون ، أما الذين آمنوا بالله عز وجل ورسله فجزائهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها لا يبغون عنها حولا ، وما هم عنها بمخرجين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، ورضاهم عنهم أعظم من النعيم الذي أوتوه كما قال تعالى : – (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) أي : – أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم ، كما في الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : – " إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : – يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك ، والخير كله بيديك ، فيقول : – هل رضيتم ، فيقولون : – وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا ما لم تعطي أحداً من خلقكم ، فيقول : – ألا أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : – يا رب ، وأي شيء أفضل من ذلك ، فيقول : – أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا " .

وقوله تعالى : – (ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) يعني : – ذلك الجزاء المذكور إنما أعد لمن خشي ربه ، كما قال سبحانه : – (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى) وقال سبحانه : – (ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقال سبحانه : – (إنا الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة واجر كبير) وأولى الناس بهذا الوعد وأسعدهم به العلماء لأنهم هم أهل الخشية ، كما قال الله تعالى : – (إنما يخشى الله من عباده العلماء) .

نسأل الله تعالى أن يرزقنا خشية في السر والعلانية .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبة أجمعين .

التفسير الإجمالي

المحاضرة الثامنة عشرة

تفسير سور الزلزلة والعاديات والقارعة والتكاثر والعصر والهمزة والفيل

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير هذه السور الزلزلة ، والعاديات ، والقارعة ، والتكاثر ، والعصر ، والهمزة ، والفيل ، فنقول وبالله تعالى التوفيق : –

سورة الزلزة ، والعاديات ، والقارعة ، والتكاثر ، والعصر ، والهمزة ، والفيل .

سورة الزلزلة

(إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ) .

سورة الزلزلة سورة مكية ، واسمها يدل على موضوعها ، فهي هزة عنيفة للقلوب الغافلة ، هزة يشترك فيها الموضوع والمشهد ، وصيحة قوية مزلزلة للأرض ومن عليها ، فما يكيدون يفيقون حتى يواجههم الحساب ، والوزن ، والجزاء .

(إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ) وذلك يوم ينفخ في الصور ، فيبعثر ما في القبور ، (وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا) كما قال تعالى : – (وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) وكأن الأموات كانوا ثقلاً عليها ، فما أن أذن لها في إخراجهم حتى ألقت ما فيها وتخلت عنهم .

(وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا) أي : – ما الذي أصابها ، وما الذي جعلها تهتز وتضطرب ، بعدما كانت مستقرة ، ساكنة ثابتة ، لقد عرف الإنسان في الدنيا الزلازل والبراكين ، لكنه الآن يرى زلزلة دونها كل ما رأى من الزلازل ، (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ) .

(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا) أي : – تحدث بما عمل العاملون على ظهرها ، وذلك أن الأرض من جملة الشهود التي تشهد على الإنسان يوم القيامة .

وقوله تعالى : – (بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا) يعني : – إنما أخرجت الأرض أثقالها ، وحدثت أخبارها ، بسبب أن الله أذن لها أي أمرها فأذنت لربها وحقت ، أي سمعت و أطاعت ، وحق لها أن تسمع وتطيع . (يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا) أي : – جماعات متفرقين مختلفين . (لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ) أي : – لتعرض عليهم أعمالهم ، كما قال تعالى : – (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى) فمن يعمل مثقال ذرة خير يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ، إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجر عظيما ، ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ، ولذا كان من وصايا لقمان لابنه وهو يعظه (يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ) فلا تحقرن من المعروف شيئا ، فعسى أن ثقل به موازينك ، ولا تحتقرن من المنكر شيئا ، فعسى أن تخف به موازينك .

خل الذنوب صغيرها وكبيرها ذاك التقى
واصنع كماش فوق أرض الشوق يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

أما سورة العاديات

فهي سورة مكية .

استفتحت : – بالقسم بخيل المجاهدين في سبيل الله على أن الإنسان كفور لنعمة الله ، شديد الحب بالمال الذي لا ينفعه إذا بعثر ما في القبور ، كما قال تعالى : – (يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ إلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) .
(وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) هذه كلها خيل الخير ، خيل المجاهدين في سبيل الله ، يقسم الله تعالى بها ، تكريما لها ، وهي عدة الجهاد التي عرفها العرب ، وعليها كانوا يقاتلون ، والعاديات ، الخيل حين تعدو أي تجري ، والضبح ، هو الصوت الذي يسمع من الفرس حين تعدو .
(فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا) يعني : – احتكاك بالصخر فتقدح من النار .
(فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا) ، يعني : – الإغارة وقت الصبح ، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ، كان إذا غزا قوماً بات قريباً منهم ، فإذا أصبح استمع الأذان ، فإن سمع أذاناً ، وإلا أغار .
(فَأَثَرْنَ به نَقْعًا) ، يعني : – غباراً في مكان معترك الخيول ، فوسطن به جمعا ، أي : – أوسطن ذلك الم كان كلهن جمع ، وجواب القسم (إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ) يجحد الفضل ويكفر النعمة يعد المصائب وينسى النعم . (وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ) يعني : – على أنه شهيد على نفسه بلسان حاله .
(وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) والخير : – هو المال ، كما قال تعالى : – (كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ) ، يعني : – إن ترك مالا ًكثير ، وقد صرح ربنا سبحانه بذلك فقال : – (وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) حتى ألهاكم التكاثر عن ذكر الموت والآخرة ، أفلا يعلم الإنسان أنه إذا بعثر ما في القبور ، لا ينفع مال ولا بنون ، وإنما حصل ما في الصدور ، لا ما في الجيوب والبنوك ، ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مره وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : – " يتبع الميت ثلاثاً : – أهله وماله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله ، ومله ، ويبقى عمله " .
(إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ) يجمع ما كان يعملون ، وسوف يجزيهم عليه أوفر الجزاء ولا يظلم ربك أحدا .

أما سورة القارعة

فهي سورة مكية ، والقارعة : – اسم من أسماء يوم القيامة ، كالحاقة ، والصاخة ، والغاشية ، واسمها يدل على موضوعها ، فهي تعرض مشهداً من مشاهد القيامة ، وتختم ببيان مصير الناس يومئذ ، فأما من ثقلت موازينه ، فهو في عيشة راضية ، و أما من خفت موازينه ، فأمه هاوية ، وما أدراك ما هي ، نار حامية .
(الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ) القارعة : – من أسماء القيامة ، سميت كذلك : –لأنها تقرع آذان الناس ، وأصل القرع الدق بشدة ، ما القارعة ، وما أدراك ما القارعة ، إن هولها أكبر مما تتصور ، فإنه لم يقرع سمعك شيء مثل القارعة .

(يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) وذلك يوم يقوم الناس من قبورهم ، بعد النفخ في الصور ، يوم يدعوا الداعي إلى شيء نكر خشعاً أبصارهم ، يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ، وبثت الجبال بثاً فكانت هباء منبثا ، وسيرت الجبال فكانت سرابا ، ثم تنسف نسف فلا يبقى لها عين ولا أثر ، كما قال تعالى : – (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا) هذا هو مشهد القيامة الذي تعرضه الآيات ، وأما نهاية الناس ، فيقول تعالى : – (فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ) .
وقد كثر ذكر الميزان في القرآن : – وهو كيوم بعد الحساب ، لأن الحساب إنما : – هو تقرير للأعمال ، وأما الميزان : – فهو إظهار لقدرها وقيمتها .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يثقل موازيننا ، وأن يبيض وجوهنا ، وأن يدخلنا الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وأن يسكننا الفردوس الأعلى بفضله وكرمه ورحمته .

أما سورة التكاثر

فالتكاثر : – هو الانشغال بالدنيا وحطامها ، من مال ، وولد ، ومنصب ، وجاه ، وغير ذلك مما يتعلق بحطام الدنيا الفاني ، الانشغال به عن ذكر الله سبحانه وتعالى ، والله تبارك وتعالى ، يقول على سبيل الذم : – (أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ) أي : – شغلكم عن ذكر الله ، وألهاكم عن طاعته (حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ) يعني : – أنكم تشاغلتم بالتكاثر عن ذكر الله ، فلم تفيقوا من غفلتكم ، ولم تنتبهوا من رقدتكم ، حتى نزل الموت بساحتكم ، فلم يرعكم إلا ظلمة القبر تلفكم ، والملائكة تسألكم ، من ربك ؟ ، وما دينك ؟ ، وما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ .
ثم توعد الله تعالى هؤلاء الذين انشغلوا بحطام الدنيا ، عن طاعة الله عز وجل ، فقال : – (كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) وكلا كلمة ردع وزجر ، والمعنى : – سوف تعلمون العاقبة الوخيمة لانشغالكم بالتكاثر عن ذكر الله ، وهي الخسران ، سوف تعلمون أنكم خسرتم خسراناً مبين ولذا حذر الله المؤمنين من تشاغلهم بالتكاثر فقال : – (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) وقوله تعالى : – (كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ) لو تعلمون علم اليقين شرط جوابه محذوف وليس ما بعده جواب له ، وتقدير الكلام ، لو تعلمون علم اليقين ، أنكم إلى الله راجعون وبأعمالكم مجزيون ما ألهاكم التكاثر ولكن ظننتم أنكم لا ترجعون ، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداهم فأصبحتم من الخاسرين ، وقوله تعالى : – (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ) تفسير للوعيد المتقدم في قوله : – (كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ) توعدهم برؤية النار التي إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا قال تعالى : – (وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا) وقال تعالى : – (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا) .
وقوله تعالى : – (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ) يعني : – لتسألن عن شكر ما أنعم الله به عليكم ، من الصحة ، والمال ، والولد ، والأمن ، والرخاء ، وهدوء البال ، وطيب القلب ، ونحو ذلك من النعيم حتى .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم : – " عد من النعيم الماء البارد ، فقال إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم ، أن يقال له : – ألم نصح لك جسمكم ونرويك من الماء البارد ، ولما سئل نزلت الآية ، قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : – وأي

نعيم نسأل عنه ، وإنما هما الأسودان التمر والماء ، فقال عليه الصلاة والسلام : – أما ذلك سيكون ، نسأل الله تعالى أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته ، وأن يتم علينا نعمته " .

أما سورة العصر

(وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) .

أما سورة العصر ، فهي سورة مكية ، تضمنت وعيداً شديداً ، وذلك بأنها استفتحت بقسم من الله تعالى ، على أن الإنسان في خسران ، وأنه لا ينجو من هذا الخسران إلا من توفرت فيه أربع صفات وهي : –

١) الإيمان .

٢) والعمل الصالح .

٣) والتواصي بالحق .

٤) والتواصي بالصبر .

فمن توفرت فيه هذه الصفات فقد بلغ غاية الكمال ، لأن غاية الكمال ، هي أن يكمل الإنسان نفسه ، ثم يسعى في تكميل غيره .

وتكميل نفسه يكون بإصلاح قوتين : –

١) العلمية .

٢) والعملية .

وإصلاح القوة العلمية يكون بالإيمان ، وصلاح القوة العملية يكون بالعمل الصالح ، فمن فعل ذلك فقد كمل نفسه فعليه أن يسعى في تكميل غيره ، حتى يبلغ نهاية الكمال ، فيأمر الناس بالإيمان والعمل الصالح ويصبر على ذلك ويصبر على ما يلقاه من الأذى بسبب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد تضمنت السورة الكريمة هذا كله مع قصرها وقلة آياتها فهي على ذلك ، أعظم سورة في القرآن .

ولذا كان الإمام الشافعي رحمه الله يقول : – " لوما أنزل الله على الناس غير هذه السورة ، لكفتهم ، ولكن الناس في غفلة عن التفكير فيها " .

قوله تعالى : – (وَالْعَصْرِ) المراد بالعصر : – الزمن ، الذي هو زمن ربح المؤمن وخسارة الكافر ، فالمؤمن يتاجر في العصر تجارة رابحة مع الله ، كما قال تعالى : – (إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ) .

أما الكافر : – فهو غافل عن ذلك ، منغمس في شهواته وملذاته ، لا يفيق منها إلا في ساحة الموت ، وهنالك يعرف قيمة الوقت ، فينادي (رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ) وهيهات هيهات أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير ،

فذقوا فما للظالمين من نصير . قال تعالى : – (قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلا قَلِيلا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) يعني : – لو أنكم كنت تعلمون لما آثرتم الفاني على الباقي ، ولما تصرفتم في أنفسكم هذا التصرف السيئ ولاستحققتم من الله سخطه في تلك المدة اليسيرة فلو أنكم صبرتم على طاعة الله وعبادته كما فعل المؤمنون لفزتم كما فازوا فعلى العاقل أن يغتنم حياته قبل مماته ، و أن يغتنم فراغه قبل انشغاله ، وأن يترك اللهو واللعب ، وأن يعلم أن عمره رأس ماله في تجارته مع الله عز وجل ، فليكن حريصاً على وقته أكثر من حرصه على ماله ، وليكن أضن بوقته منه بماله ، فإن المال إذا فقد ربما رجع أو عوضت عنه خيراً منه ، أما الوقت إذا ضاع ، فليس منه عوض ، ولن يرجع إلى يوم القيامة .
(وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ) والخسر والخسران واحد كالكفر ، والكفران ، ومعناه إن الإنسان كل إنسان في خسران مبين .

(إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ) فلهم أجر غير ممنون ، فاستثنى الله سبحانه من الخسران من اتصف بالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر .

والإيمان : – هو أول واجب على المكلف ، وليس له وسيلة سوى العلم ، فالعلم هو الوسيلة الموصلة إلى الإيمان ، وليس للعلم مصدر ، سوى الكتاب والسنة ، فعلى المسلمين أن يهتموا بطلب العلم ما وجدوا إلى ذلك سبيل ، فإن الانشغال بطلب العلم أفضل بالانشغال بنوافل العبادات ، وعلى من تعلم أن يعمل .

فإن العمل : – هو الصفة الثانية ، من الصفات المنجية من الخسران ، وإنما مدح العلم من أجل العمل ، وإنما العلم شجره ، والعمل ثمرة ، فمن تعلم ، ولم يعمل فإن علمه إن لم يضره لم ينفعه ، وضرره ثابت ، فقد قال عليه الصلاة والسلام ، يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار ، فتندلق أقدام بطنه ، فيدور حولها كما يدور الحمار في الرحى ، فيأتيه الناس فيقولون يا فلان مالك ، ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فيقول بلى ، كنت أمر بالمعروف ولا آتيه ، وأنهى عن المنكر ، وآتيه ، فاعملوا صالحاً يا أهل الإيمان فإن النجاة متوقفة على الإيمان والعمل الصالح ، وإن وفقتم لذلك فعليكم بالتواصي بالحق ، ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، وكل من التعلم والعمل ، والتعليم ، شاق ، يحتاج إلى صبر ومصابرة ، ولذا كانت الصفة الرابعة من الصفات المنجيات من الخسران ، التواصي بالصبر ، فالصبر نصف الإيمان ، والصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ، ولذا كثر في القرآن الكريم الحث عليه ، والترغيب فيه ، كما كثرت في ذلك الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للعمل بما جاء في هذه السورة حتى ننجو من الخسران الذي هو متحقق لكل الناس ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر .

أما سورة الهمزة

فهي سورة مكية ، قد توعدت الذين يعيبون الناس ، والين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ، وذكرت أن مأواهم جهنم وبئس المهاد .

(وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) اختلف العلماء في الهمز واللمز ، هل هما بمعنى واحد ، أم مختلفان ، فقال بعضهم هما بمعنى واحد ، وقال بعضهم يختلفان .

فالهمز : – هو عيب الغير باللسان في غيابه .

واللمز : – هو عيب الغير باليد أو بالعين أو بالإشارة ، أو بالكلمة الخفية في حضوره .

وعلى كل حال فالمراد بالهمز واللمز : – عيب الناس وازدرائهم واحتقارهم

وقد استفتحت السورة : – بهذا الوعيد الشديد (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) .

قيل : – الويل كلمة تقال للزجر والردع .

وقيل : – ويل واد في جهنم ، يستغيث جنهم بالله من شدة حره .

فالهمز واللمز من الكبائر ، وهما من عمل المنافقين والكافرين ، قال تعالى : – (ومنهم من يلمزك في الصدقات) وقال تعالى : – (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ) وقال تعالى : – (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ) وقد نهى الله تبارك وتعالى المؤمنين عن الهمز واللمز ، قال تعالى : – (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) .

ثم وصف الله الهمزة اللمزة بأنهم : – (الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ) فكثرة المال تطغي ، والكثير من المال يرقوا بنفسهم فوق النـــاس ، فيراهم دونه ، فيزدريهم ، ويحتقرهم ، ويسخر منهم ، (الَّذِي جَمَعَ مَالا وَعَدَّدَهُ) يعني : – أنه مشغول أبداً بهذا المال ، فهو طـــول النهار يعده عداً ، فإذا كان الليل نام كالجيفة نسأل الله السلامة والعافية .

(يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) أي : – يظن الجاهل أن ماله يدفع عنه الموت وينجيه منه فيكون من الخالدين ، حتى لو ظن أنه يمـــوت ، اعتقد أن الآخرة خير له من الأولى ، كما صرح بذلك صاحب الجنتين في سورة الكهف : – (وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَـــا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا) قال تعالى كلا ليس الأمر كما يظن : – (ما أغنى عنه ماله ، وما كسب) ، فالمال لا يدفع الموت عن أحد ، ولو كان المال يغني عن صاحبه شيئا لأغنى عن قارون ، الذي أوتي من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، ومع ذلك خسف الله به وبداره الأرض فما كان من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، ثم قال تعالى متعوداً الهمزة اللمزة : – (لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ) أي : – ليرمين في النار التي يحطم بعضها بعض ، (وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ) سؤال تفخيم أمرها وتعظيم شأنها ، جوابه (نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ) وإضافتها إلى الله لتفخيم أمرها وتعظيم شأنها .

وقوله تعالى : – (الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ) يعني : – أنها تأكل اللحوم حتى تتطلع على الأفئدة فتمسها ، ومع ذلك لا يموتون ، (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ) أي : – مغلقه على خلاف الجنة فإنها مفتحة الأبواب ، (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمَـــدَّدَةٍ) أي : – أن علـــى أبواب جهنم عمداً ممدة مغلقة بها فلا تفتح لهم .

نسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، أن يجيرنا وسائر المسلمين من النار ومن عذاب النار .

أما سورة الفيل

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) .

أما سورة الفيل ، فهي سورة مكية ، تذكر أهل مكة بنعمة الله عليهم ، حين رد أصحاب الفيل بغيظهم لم ينالوا خير ، وكانوا قد جاءوا لهدم الكعبة فأرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول فواجب عليهم أن يشكروا الله علـــى هذه النعمة ، وأن يعبدوه ، ويؤمنوا برسوله صلى الله عليه وسلم ، كما أنها تذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، بهذه الحادثة ، حتى يصبر على أذى قومه ، ويعلم أن الله ناصره وجاعل العاقبة له .

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ) أي : – ألم تعلم ؟ فالرؤية هنا ، رؤية البصيرة ، لا رؤية البصر ، إذ أن النبي صلى الله عليه وسلم في أرجح الأقوال ، ولد عام الفيل ، فلم يرى بعينه كيف فعل ربه بأصحاب الفيل ، وقوله تعالى : – (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِـــي تَضْلِيلٍ) يعني : – أنه تعالى خيب سعيهم ، فرجعوا يجرون ذيل الخيبة ، ولم يظفروا شيئا مما أرادوا .

(وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ) يعني : – جماعات جماعات ، بعضها في إثر بعض .

(أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ) أي : – بحجارة من طين متحجر ، لا تصيب أحداً إلا قتلته .

(فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ) أي : – كورق الشجر الذي عصفت به الريح وأكلته الدواب ، ثم غاثته .

وقد تضمنت كتب السيرة قصة أصحاب الفيل بالتفصيل الطويل ، وفيما جاء في السورة الكريمة من الإشارة الموجزة ما يغـــني عـــن التطويل .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

التفسير الإجمالي

المحاضرة التاسعة عشرة

تفسير سور قريش والماعون والكوثر والكافرون والنصر والمسد والإخلاص والمعوذتين

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آلـه وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي ، هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

ثم إننا على موعد في هذا الدرس إن شاء الله تعالى مع تفسير هذه السور : – قريش ، والماعون ، والكوثر ، والكافرون ، والنصـر ، والمسد ، والإخلاص ، والمعوذتين .

فنقول وبالله تعالى التوفيق : –

سورة قريش ، والماعون ، والكوثر ، والكافرون ، والنصر ، والمسد ، والإخلاص ، والمعوذتين .

سورة قريش

سورة مكية ، وهي تذكر كفار مكة بفضل الله عليهم ، الموجب عليهم أن يشركوه بعبادتهم إياه وحده لا شريك له ، وكانت قريش ولا سيما بعد عام الفيل تغدو ، وتروح ، وتجوب البلاد شمالا وجنوباً ، آمنة مطمئنة ، لا يعترض قوافلها أحد يقول الناس ، هؤلاء أهل بلد الله كفاهم الله مؤنه العدو لمكانتهم ومكانة بيته ، فذكرهم الله بهذه النعمة فقال : – (لِإِيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) رحلة الشتاء إلى اليمن ، ورحلة الصيف إلى الشام ، وأينما توجهوا فهم آمنون وغيرهم خائفون وهذه نعمة توجب الشكر حتى تدوم فإن النعم تزيد وتدوم بالشكر ، وتنقص حتى تضمحل وتذهب بالكفر ، كما قال تعالى : – (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) ولذا قال تعالى : – (فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّـنْ خَـوْفٍ) والله سبحانه وتعالى ، كثيراً ما يذكر الناس بنعمته ، حين يأمرهم بعبادته من باب أن النفس تحب من أحسن إليها فالله يذكر الناس بإحسانه ، ثم يأمرهم بعبادته ، كما هو واضح من هذه السورة ، وكما في قول الله تعالى : – (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْـزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَـلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) وكما قال سبحانه : – (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) ، (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

ثم سورة الماعون

فهي سورة مدينة ، تضم أهل البخل والرياء ، الذين أساءوا فيما بينهم وبين الله عز وجل وأساءوا فيما بينهم وبين عباد الله ، وتحـض على التخلي عن هذه الصفات الدميمة والتحلي بضدها من الجود والكرم والإخلاص لله سبحانه وتعالى .

قوله عز وجل : - (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ) أي : - بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة ، فلا يؤمن بثواب على طاعة ولا عقاب على معصية ، ولذلك فهو : - (يَدُعُّ الْيَتِيمَ) أي : - يدفعه دفعاً شديد ، ويزجره ويغلظ له القول لأنه لا يرجو ثواب ببره ، ولا يرجوا عقاب على دعه ، (وَلا يَحُضُّ) غيره من الأغنياء (عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ) لأنه هو أصلاً لا يطعمهم .
(فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ) الذين هم يغفلون عن أوقات الصلاة ، فيصلون الصلاة بعد خروج وقتها ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى لا يذكرون الله فيها إلا قليلاً وهؤلاء هم المنافقون (الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ) أي : - يصلون من أجل أن يراهم المؤمنون فيظنوهم منهم ومعهم ، كما قال تعالى : - (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلاً) .
ومن شدة بخلهم أنهم (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) أي : - إذا سألوا على وجه العارية المردودة منعوا الشيء الذي لا يضرهم إعطاءه ولا ينفعهم إمساكه وذلك من شدة حرصهم ، وبخلهم فعلى المسلم الصادق أن يتخلى عن هذه الصفات الذميمة ، وأن يتحلى بضدها من البر والإحسان ، فيما بينه وبين الله عز وجل بإخلاص العبادة له ومراقبة ، والتقرب إليه ، وبالإحسان إلى خلق الله عز وجل ولا سيما اليتيم الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بالضعيف .

أما سورة الكوثر

فهي سورة مكية ، تأمر النبي صلى الله عليه وسلم بإخلاص العبادة لله مقابل ما أعطاه من الكوثر ، وتبشره بأن الله مخزي أعداءه ومبغضيه ، ومعذبهم عذاباً أليم .
عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : - بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم بين أظهرنا بالمسجد ، إذا أغفى إغفاءه ، ثم رفع رأسه متبسم ، فقلنا ما أضحكك يا رسول الله قال : - نزلت علي آفناً سورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) ثم قال صلى الله عليه وسلم : - أتدون ما الكوثر ، قلنا الله ورسوله أعلم قال : - فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنية عدد نجوم السماء فيختلع العبد منهم فأقول ربي إنه من أمتي ، فيقول : - ما تدري ما أحدث بعدك ، ففسر النبي صلى الله عليه وسلم ، الكوثر بأنه نهر في الجنة ترد عليه أمته ، فتشرب منه شربة هنيئة مرية ، لا تظمأ بعدها أبد .

قال العلماء : - والكوثر في اللغة ، العطاء الكثير ، قيل لامرأة أعرابية ، قد رجع ابنها من سفر ، بما أب ولدك قالت بالكوثر ، تعنى عاد بخير كثير ، فقول الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم : - (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) أي : - أعطيناك في الدنيا خيراً كثير ، وسوف نعطيك في الآخرة أكثر ، كما قال تعالى : - (ولسوف يعطيك ربك فترضى) .
ولما كان هذا الوعد متحققاً ولا بد ، قال الله تعالى : - (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ) بلفظ الماضي (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) وما هذا النهر الكوثر إلا من هذا العطاء الواسع الكثير ، الذي أعطاه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وهذا العطاء يوجب الشكر ، والشكر لا يتحقق بكلمة الحمد لله والشكر لله فقط ، وإنما يتحقق بالعمل ، بطاعة الله عز وجل ، ولذا لما ذكر الله تعالى آل داود ببعض نعمه عليهم ، أمرهم بالشكر فقال : - (اعملوا آل داود شكراً) فالشكر الحقيقي يكون باللسان والقلب ، والأركان ، باللسان : - بأن يحدث

بنعمة الله ، ويلهج بالثناء عليه وشكره ، وبالقلب : – بأن يعتقد الإنسان أن ما به من نعمة فمن الله وحده لا شريك له ، وبالأركان : – بالقيام بما يحبه الله وترك ما يبغضه ، وأن تستخدم نعمة الله في مرضاته ، ولهذا قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم هنا : – (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) فالفاء واقعة في جواب قوله : – (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ) وتقدير الكلام (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ) شكراً على ما أعطاك .

فأمره الله بعبادتين من أعظم العبادات وأجل القرب ، وهما : –
١) الصلاة .
٢) والنحر .

قال العلماء : – لقد كان المشركون يصلون للأصنام ويذبحون لها ، ويذكرون اسمها على الذبائح ، فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه بمخالفتهم ، بأن يصلي لله ، وأن يذبح لله ، ويذكر اسم الله على ذبائحه كلها ، كما أمره الله تعالى أن يقول : – (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) .

وخصت الصلاة بالذكر لأنها أعظم العبادات البدنية ، وخص النحر بالذكر لأنه أعظم العبادات المالية ، ولقد استجاب صلى الله عليه وسلم لأمر ربه عز وجل وقام بذلك خير قيام .
أما الصلاة فكان صلى الله عليه وسلم ، يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه .

فقيل له : – لما تفعل هذا ، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فقال صلى الله عليه وسلم : – أفلا أحب أن أكون عبداً شكور .

وأما النحر فكان صلى الله عليه وسلم جواداً كريماً ، وكان كثيراً ما يذبح باسم الله ، ويوزع اللحم في سبيل الله كما جاء عن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة فقال صلى الله عليه وسلم : – ما بقي منها إلا كتفها ، قال : – بقي كلها غير كتفها ، ومعناه : – تصدقوا بها إلا كفتها فقال : – بقيت لنا في الآخرة إلا كتفها بل إنه صلى الله عليه وسلم ، أهدى في حجة الوداع مئة بدنه ، ذبح بيده ثلاث وستين منها ، وذبح علي رضي الله عنه الباقي .

وقوله تعالى : – (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) الشانئان : – هو البغض ، والشانئ : – هو المبغض قال تعالى : – (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا) يعني : – لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، فاله تعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : – إن الذي يبغضك هو الأبتر أي : – المقطوع الذي لا ذكر ، وهو المنقطع عن كل خير ، وقد كانوا يقولون عن النبي صلى الله عليه وسلم : – أن رجل أبتر ، وذلك حين مات ذكور أولاده ، فقالوا : – لا عليكم منه فما هو إلا رجل أبتر قد مات ذكوره ، وهو لاحق بهم ، فيبتر ذكر وتنقطع سيرته ، فقال الله تعالى : – (إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ) أما أنت فقد رفع الله ذكرك ، فلا يذكر إلا وذكرت معه ، في الأذان وفي الخطبة ، وفي تشهد الصلاة ، وفي المجالس ، بل من ذكرت عنده ولم يصلي عليك ، أبعده الله ورغم أنفه ، ومن كان كذلك فشانئه لا هو ، هو الأبتر المقطوع ، المقطوع العقب ، والمقطوع العمل ، فلا يبقى له

ولد ، ولا يبقى له عمل ، بل ولده مقطوع وعمله مقطوع فلا شيء له يذكر به ، وهو مقطوع العمل الصالح فلا يوفق له أبداً ، وإن عمله لا يجد له حلاوة .

أما سورة الكافرون

فهي سورة البراءة من المشركين وأعمالهم ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقرأ بها مع قل هو الله أحد في ركعتي الفجر ، وركعتي المغرب ، وركعتي الطواف ، كما كان صلى الله عليه وسلم يقرأهما إذا أوى إلى فراشه لينام ، لقد بلغ من جهل المشـــركين ، وغباوتهم لما عجزوا عن ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم للدعوة ، وعن الدين والتوحيد ، مع استخدامهم جميع الأســـاليب مـــن الترغيب والترهيب والحيلة ، بل من جهلهم أن دعوا إلى ما يسمى بلغة العصر أنصاف الحلول ، فقالوا : – يا محمد اعبد اللات معنا عاماً ، ونعبد الله معك عام ، فإن كنت على حق فقد كنا معك ، وإن كنا على حق فقد كنت معنا ، فنهى الله رسوله صلى الله عليـــه وسلم عن طاعتهم فقال : – (فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ) وأمره هنا أن يصدع ببراءته منهم حتى ييأسوا منه فقال : – (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) .

قال بعض العلماء : – التكرار في السورة للتأكيد .

وقال بعضهم : – المراد (لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ) في الحال ، (وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُد) الآن ، (وَلا أَنَا عَابِـــدٌ مَّـــا عَبَـــدتُّمْ) في المستقبل ، (وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) في المستقبل .

(لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) ، وهذه البراءة من المشركين وأعمالهم سنة أبينا إبراهيم عليه السلام ، وقد أمرنا الله بأن نقتدي به ونتبع سنته ، قال تعالى : – (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ) فالتبري من الكافرين سنة أبينا إبراهيم والتوحيد ملته ، وقـــد قال تعالى : – (وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) فلا بد من التبري من أعداء الله ، لا بد من التبري من الكفر وأهله ، والشرك ، وأهله ، فلا يجوز أن يقر مسلم باستحقاق غير الله بالعبادة مع الله ، قال تعالى : – (فاعلم أنه لا إلا الله) أي : – لا معبود بحق إلا الله ، وكل ما عبد من دون الله فقد عبد بالباطل ، قال تعالى : – (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَـــنْ يَكْفُـــرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) وهذه السورة ، كقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : – (وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ) وكقولـــه تعـــالى : – (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْـــزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَـــا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) .

أما سورة النصر

فهي سورة مدنية ، تحمل البشري لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالنصر والفتح ، وتوجهه إلى التسبيح بحمد الله والاســـتغفار إذا جاء نصر الله والفتح ، كما أنها مع حملها البشرى ، قد نعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه ، وكأنه قيل له ، كـــان منتـــهى مطلوبك في الدنيا هذا الذي وجدته وهو النصر والفتح والاستيلاء ، والله وعدك بقوله : – (وللآخرة خير لك مـــن الاولى) فلمـــا

وجدت أقصى مرادك في الدنيا فانتقل إلى الآخرة لتفوز بتلك السعادات العالية ، وحتى يأتيك الموت سبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا .

قال العلماء : – لما جمع الله تعالى بين النصر والفتح ، فقال : – (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) أليس الفتح نصراً ، وأجابوا بأن النصر قد تحقق من غير فتح ، كما كان يوم بدر إذ خرج المؤمنون وخرج المشركون من مكة ، والتقى الجمعان ببدر ، فنصر الله رسوله والمؤمنين ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خير ، بل قتل منهم سبعون ، وأسر مثلهم فكان نصر من غير فتح ، لكن إذا جاء نصر الله والفتح وذلك يوم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان الفتح وهو ظاهر وكان النصر لأن الله مكن لنبيه صلى الله عليه وسلم ، منهم فمن عليهم وعفا عنهم .
وقوله تعالى : – (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا) يعني : – بعد الفتح ، وذلك أن العرب من غير قريش كانوا يقولون انظروا ما الله فاعل بمحمد وقريش ، فإن نصر الله قريش كما نصرها عام الفيل فمعناه : – أن ما عليه قريش خير مما يدعوا إليه محمد ، وإذ انتصر محمد على قريش فمعناه : – أن محمداً أهدى منهم سبيل ، فلما جاء نصر الله والفتح عام ثمانية من الهجرة ، جاءت وفود العرب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فبايعوه على الإسلام وسمي العام التاسع بعد عام الفتح ، بعام الوفود ، ودخل الناس في دين الله أفواج .
وقوله سبحانه : – (فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) الفاء : – واقعة في جواب الشرط (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ) على ما حباك من نعم (وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه السورة ، يكثر من قول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي ، كان يقول ذلك في الركوع والسجود يأول القرآن كما قالت عائشة رضي الله عنها .

أما سورة المسد

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : – لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين ورهطك منهم المخلصين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا ، وهتف يا صباحاه ، فقالوا : – من هذا فاجتمعوا إليه فقال : – أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجمل ، أكنتم مصدقي ، قالوا : – ما جربنا عليك كذب ، فقال : – فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، قال أبو لهب : – تباً لك ، ما جمعتنا إلا لهذا .
ثم قام فنزلت : – (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) والتباب معناه : – الضلال والهلاك ، قال تعالى : – (وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلا فِي تَبَابٍ) والتباب أيضا معناه : – الخسران ، قال تعالى عن الأمم التي أخذها بالعذاب : – (فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ) أي : – تخسير ، فمعنى قول الله تعالى : – (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ) يعني : – ضل وهلك ، وخاب وخسر .
وقوله تعالى : – (وَتَبَّ) يعني : – وقد خاب وخسر .

فالجملة الأولى : – دعاء عليه .
والثانية : – تحقق بها الدعاء ، ووقعت الإجابة .

وأبو لهب هو : – عبد العزى ابن عبد المطلب ، أحد أعمام النبي صلى الله عليه وسلم ، وأشدهم أذية له ، وأكثرهم بغضاً له ولدعوته ، وقد أظهر كراهيته وبغضه للنبي صلى الله عليه وسلم ولدعوته من أول لحظة ، صدع فيها النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة كما في ذلك الحديث ، وما زال يحارب النبي صلى الله عليه وسلم والدعوة ، ويصد عنه وعنها ، حتى مات في غزوة بدر غماً ، وكان وجهه شديد الحمرة فكناه الله تعالى : – (بأبي لهب) ليناسب النار التي يصلاها حيث إنا أيضا ذات لهب .

وقوله تعالى : – (مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) يعني : – ولد وما كسب وما كسب يعني : – ولده ، والمال لا يغني عن صاحبه شيئا في الدنيا ولا في الآخرة ، أما في الدنيا فما كان أحد أكثر مال من قارون ، ومع ذلك ما أغنى عنه ماله شيئا ، قال تعالى : – (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ) وكما لم يغني المال عن صاحبه شيئا في الـــدنيا ، فلن يغني عنه في الآخرة شيئا كما قال تعالى : – (وما يغني عنه ماله إذا تردى) يعني : – في النار .

وقوله تعالى : – (سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ) أي : – سيدخل أبو لهب ناراً ذات لهب تغمره من جميع الجهات ولهبها عظيم ، كما قال تعالى : – (إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ) .

وستدخل معه امرأته أم جميل أروى بنت حرب ، أخت أبي سفيان ابن حرب ، وكانت أيضا من ألد أعداء النبي صلى الله عليه وسلم والدعوة ، ومن أشد الناس بغضاً للنبي صلى الله عليه وسلم وللدعوة ، وكانت تؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعين زوجها على حربه صلى الله عليه وسلم ، فتوعدها الله بالنار مع زوجها فقال : – (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ).

وفي تفسير (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) قولان : –

الأول : – أنها تكون مع زوجها أبي لهب في النار تحمل الحطب وتلقي عليه لتشتعل ناره ، فتكون عوناً للنار عليه كما كانت عوناً له على النبي صلى الله عليه وسلم .

والقول الثاني : – أن قوله تعالى : – (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) كناية عن مشيها بين الناس بالنميمة التي هي نقل كلام الناس بعضهم في بعض على وجه الإيقاع والإفساد بينهم ، فالنمام يشعل نار الحقد والعداوة بين الأحبة ، فعبر عنه بحامل الحطب ، وجزاءه أن يصلى ناراً حماية ، ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يدخل الجنة نمام .

وقوله تعالى : – (الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) يعني : – أن في عنق امرأة أبي لهب حبلاً فهي : – مقيدة في جهنم تنطلق وتأتي بالحطب ثم تعود وتلقي على أبي لهب .

قال العلماء : – وهذه السورة ظاهرة في الدلالة على معجزة النبوة ، لأن الله تعالى أخبر أن أبا لهب وامرأته في النار ومعنى ذلك أنهما لن يؤمنا أبدا ، وقد كان نزول هذه السورة في أول أمر الدعوة ، وكانوا حريصين على إبطالها بأية حيلة ، ومع هذا لم يفكر أبي لهب ، ولا امرأته في إعلان الإيمان ولو نفاقاً ليبطلا ما قاله الله ، وبلغه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فثبت بهذا صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه كما قال ربه : – (وما ينطق عن الهوى إن هو وحي يوحى) .

أما سورة الإخلاص

فهي سورة التوحيد ، توحيد الأسماء والصفات .

كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ بها مع سورة : –

١) الكافرون في ركعتي الطواف .
٢) وركعتي الفجر .
٣) وفي الأخريين من الوتر ، إذا أوتر بثلاث .
٤) كما كان يقرأها مع المعوذتين دبر الصلاة .
٥) وعند النوم ، كان يجمع كفيه فينفث فيهما ثم يقرأ بهذه السور الثلاث ، ويمسح وجهه وما استقبل من جسده .
٦) وكان إذا مرض فعل ذلك .
٧) وأمر بقراتها ثلاث ققي الصباح والمساء .

ومما جاء في فضلها : – عن أنس رضي الله عنه قال : – كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بقل هو الله أحد حتى يفرغ منها ثم يقرأ سورة أخرى معها ، وكان يصنع ذلك في كل ركعة ، فكلمه أصحابه فقال : – إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بأخرى ، فإما أن تقرأ بها ، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى فقال : – ما أنا بتاركها ، وإن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت ، وإن كرهتم تركتكم ، وكانوا يرون أنه من أفضلهم ، وكرهوا أن يؤمهم غيره ، فلما آتاهم صلى الله عليه وسلم ، أخبروه الخبر ، فقال : – يا فلان ، ما يمنعك أن تفعل ما يأمرك به أصحابك ؟ ، وما يحملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة ، فقال : – إني أحبها ، فقال صلى الله عليه وسلم : – " حبك إياها أدخلك الجنة " .
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : – احشدوا فإنه سأقرأ عليكم ثلث القرآن فحشد من حشد ، ثم خرج نبي الله صلى الله عليه وسلم فقرأ : – (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) ثم دخل ، فقال بعضنا لبعض : – قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : – سأقرأ عليك ثلث القرآن فأخبروه صلى الله عليه وسلم ، فقال : – إنها تعدل ثلث القرآن ، إنها تعدل ثلث القرآن لأنها : – قد تضمنت ثلث التوحيد ، فهي كما أشرت في توحيد الأسماء والصفات .

والتوحيد ثلاثة أقسام : –
١) توحيد الربوبية .
٢) وتوحيد الألوهيه .
٣) وتوحيد الأسماء والصفات .

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) قد اشتملت على توحيد الأسماء والصفات فكانت ثلث القرآن .
وقوله تعالى : – (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أحد في ذاته فلا ثاني له ، وأحد في صفاته فلا شبيه ولا نظير له ، وأحد في أفعاله ، فلا شريك له ، ولا راد لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالب لأمره ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون .
وقوله سبحانه : – (اللَّهُ الصَّمَدُ) قالوا في تفسير الصمد : – الذي لا جوف له ، الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ، ومسائلهم ، الباقي بعد فناء خلقه ، السيد الذي كمل في سؤدده ، والشريف الذي كمل في شرفه ، والعظيم الذي قد كمل في عظمته ، والحليم الذي قد كمل في حلمه ، والعليم الذي قد كمل في علمه ، والحكيم الذي قد كمل في حكمته ، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد ، وكلها ألفاظ صحيحة ، وكلها صفات ربنا الصمد سبحانه وتعالى .

وقوله عز وجل : – (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ) يعني : – ما كان لله من ولد وما كان له من والد ، وإنما قدم نفي الولد على نفي الوالد ، والأصل العكس ، لأنه لم يدعي أحد البتة أن لله والد وإنما ادعى قوم أن لله ولد ، (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى

الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ) ومشركوا العرب الذين جعلوا الملائكة إناثا تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبير ، ولقد كثر في القرآن الكريم نفي الولد عن رب العالمين سبحانه ، قال عز وجل : – (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ) .

وقوله سبحانه : – (وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ) ليس له ند ولا نظير ، ولا شبيه ولا عديل ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا إفراده بالعبادة ، والإيمان بأسمائه وصفاته ، كما أخبر عن ذاته سبحانه وتعالى .

أما سورة الفلق

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) .

اختلف المفسرون في المراد بالفلق ، فقال بعضهم : – كل ما فلقه الله عن غيره ، كالليل عن الصبح ، والحب والنوى عن النبت ، والأرض عن النبات ، والأرحام عن الأولاد ، والجبال عن العيون ، والسحاب عن المطر .
قال ابن جرير : – إن الله تعالى أطلق ولم يقيد ، فتطلق كذلك كما أطلق .
فأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، أن يستعيذ (بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ) أي : – من شر كل ذي شر .
(وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ) هذا تخصيص بعد العموم فلما أمره أن يستعيذ به من شر جميع ما خلق ، خص بالذكر هذه الثلاثة ، لعظم شرها ، فقال : – (وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ) يعني : –الليل إذا دخل بظلامه ، وفي الليل تنتشر شياطين الإنس والجن ، وتتحرك الهوام ، وتتحرك النفس الأمارة بالسوء فتحض صاحبه على الشر وتزينه له ، وتحدثه أنه لن يراه أحد في الليل .
(وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ) وهن السحرة رجالاً أو نساء ، يعقدون خيط ، وينفثون فيه ، والسحر حقيقة ، قد يحصل به الضرر بإذن الله . كما قال عز وجل : – " وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله " ، وهو من الكبائر التي أمر الله ورسوله باجتنابها ففي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : – " اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : – ما هن يا رسول الله فقال : – الشرك بالله بالشرك والسحر وذكر بقية السبعة " وقوله تعالى : – (وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) . الحسد هو : – تمنى زوال نعمة الغير ، وهو أيضا حقيقة ، فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : – " العين حق " ، ولذا أمر الله تعالى نبيه أن يستعيذ به من شر حاسدا إذا حسد .

وأما سورة الناس

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ)

وإذا دققنا النظر وتأملنا في سورتي الفلق والناس ، وجدنا أن المستعاذ منه في سورة الفلق ، أربعة : –

١ ٢ ٣

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ وَمِن

٤

شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)
ولم يذكر للمستعاذ به إلا صفة واحدة ، صفة الربوبية (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) .

أما هنا في سورة الناس ، فالمستعاذ منه واحد وهو : – (الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ) .

ومع ذلك فقد ذكر للمستعاذ به وهو الله سبحانه ، ثلاث صفات : –

١ ٢ ٣

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ) .

وذلك لأن شر جميع ما خلق الله دون شر الوسواس ، لأن شر الخلق سوى الوسواس إنما يحلق البدن دون القلب ، فإذا تلف البـــدن وسلم القلب ، فاز الإنسان ونجا ، (يوم لا ينفع مال ، ولا بنون ، إلا من آتى الله بقلب سليم)

أما شر الوسواس فإنه : – يتلف القلب ويفسده ، وإذا فسد القلب فسد الجسد كله ، وخسر صاحبه ، الدنيا ، والآخرة .
(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ) فالله تعالى هو : – رب العالمين ، وهو مليكهم الذي يأمرهم وينهاهم ، وهو إلههم الذي يجيب أن يفردوه بالعبادة .

(مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ) . قال ابن عباس رضي الله عنهما : – الشيطان جاثم على قلب ابن آدم فإذا غفل عن ذكر وســـوس ، وإذا ذكر الله خنس .

وقوله تعالى : – (الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ) . قال النبي صلى الله عليه وسلم : – " ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينـــه من الجن ، قالوا : – حتى أنت يا رسول الله قال : – حتى أنا ، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير ن وكان النبي صلى الله عليه وسلم معتكفاً فزارته صفية ، فقام معها يودعها ، فمر عليه رجلان ، فلما رأياه أسرعا ، فقال صلى الله عليه وســـلم : – علـــى رسلكما إنها صفة ، فقالوا : – سبحان الله يا رسول الله فقال : – صلى الله عليه وسلم : – إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم فخشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً " .

قوله تعالى : – (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) تفسير للوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس فالوسواس يكون من الجنة كما يكون من الناس ، قال الله تعالى : – (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَـــوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) فمن الإنس شياطين ، كما أن من الجن شياطين ، فشياطين الإنس توسوس ، وشياطين الجـــن توسوس ، والنفس أيضا توسوس ، كما قال تعالى : – (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُـــهُ) والوسوســـة مثـــل : – الوشوشة وهي : – الإسرار بالكلام ومن استعاذ بالله أعاذه كما أعاذ يوسف عليه السلام حين راودته التي هو في بيتها عـــن نفســـه وغلقت الأبواب وقالت : – هيت لك ، قال : – معاذ الله ، قال : – ربي السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ، وإلا تصـــرف عـــني كيدهن أصبوا إليهم وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيديهن إنه هو السميع العليم .

السميع للاستعاذة العليم بنية المستعيذ فإذا علم منه الإخلاص والصدق وقوة الرغبة في اعاذة الله له أعاذه الله سبحانه .
أعوذ بالله من همزات الشياطين ، وأعوذ بك ربي أن يحضرون .

وبهذا معشر الطلاب نكون قد انتهينا من تفسير هذين الجزأين التاسع والعشرين والثلاثين ، وهما المعروفان باسم جزء تبارك ، وعم .

نسأل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا وإذا كم بالقرآن الكريم وفي الدنيا ، وأن يشفعه فينا في الآخرة ، وأن يجعلنا من أهل القرآن العاملين به إنه ولي ذلك والقادر عليه .

هذا والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .